تحت غطاء الرَّب

نهاية إسماعيل بادي

الكتاب : تحت غطاء الرَّب (رواية)

المؤلف : نهاية إسماعيل بادي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع : ٩٢٧٥ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 261 - 8

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



تحت غطاء الرّبّ

رواية

نهاية إسماعيل بادي

إهــداء

إلى

حبيبي ورفيق دربي زوجي

هيثم نافل والي

وقرة عيني

ولديَّ

المتنبي وآدم

تقديم

الاعتذار لا يبرِّر الخطيئة ولا يمحو أثرها؛ لكنه أول درجات العلاج نحو حياة بلا ذنوب، والله يغفر خطيئة المرء عندما يستقر ندمه صادقًا في أعماق قلبه.

صدمتني الرواية بعد أن اطلعت عليها بدقة، دقة وتر الكمان المشدود مرتين؛ مرة في موضوعها الجريء الذي لا يقبل المزاح!، خاصة وهي تعري خبايا نفوس بعض الرجال؛ فاضحة نوازعهم ونزواتهم المختبئة تحت جبة العبادة، رغم توحدهم الروحي ومناداتهم بحسن النوايا والطيبة والرحمة، ومرة في موهبة صاحبتها التي ذكرتني ولا أعرف لماذا بموهبة الكاتب العربي يحيى حقي في إبداعه الخالد "قنديل أم هاشم"؛ من حيث الأسلوب النثري الشعري المحدد بنظام دقيق لا يتجاذب ولا يتباعد، وفق خيال سحري مغري مدهش كنظام الكون، ناهيك عن الرمزية المكثفة التي يتحير في فك طلاسمها المبدعون... كيف لا وهي القائلة في روايتها:

"تقلبت مرات ومرات، مسترجعة بدقة رؤيتها شعور برهبة وخشوع، ممزوج ممدود، نور من السماء يخاطبها دون حدود، باستغفار لكل الذنوب، بكت بصدقٍ محمود، كيف نطقت كلمات بداخلها ليس لها وجود ولا يوم فكرت بإلحاد حتى عنه تعود، ابني وهبك نفسه وبحبك محسود، قلبه بك مشدود، أتمنى لقاءك دون وعود، طلع الصباح عليها بحيل مهدود، نهضت وأمرها محسوم موجود، كتب لنا دربنا منذ أتينا للوجود، مؤمنة هي لا بقاء في حياة أو خلود".

لنتبع أثر شخصية الكاتبة السيدة "نهاية إسماعيل بادي" وهي تقدم للجمهور العربي عملها الروائي الأول، الذي تشرفنا بخط مقدمة تليق بموهبتها التي توجت بإكليل الكلمة الناطقة، التي ترج مشاعر الإنسان من أعماقه، وتذكره بالهدف الذي خلق من أجله وبالرسالة التي جاء يبشر بها على الأرض، بأسلوب نثري شيق، عذب، شاعري يبكي الحجر، لِما فيه من فيض عاطفي غالب نجده في كل ركن من أركان الرواية، ثم نعرج بعدها بالحديث عن موضوعها الذي من أجله خلقت عملها الأدبي هذا، ولا أظن بأنه سيكون الأخير.

أعرف صاحبة الرواية منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، عرفتها عن كثب؛

وجدت فيها الصدق، الدقة، الجرأة، الجدية المنطلقة على سجيتها، البراءة، الطفولة في ضحكتها، الجمال في مشيتها، الرحمة في تعاملها، الطيبة في حياتها، والموهبة في كلمتها.

هذه هي صاحبة الرواية بأقل وأدق الكلمات، فانعكست صفاتها تلك على شخصيات روايتها، وهذا ما أعطى لعملها مصداقية تكاد تكون بالفطرة ربانية أقرب إلى الحقيقة كحقيقة الوجود، مما جعلت المتتبع يتبعها مطمئنًا، مرتاح البال، مغمض العينين وكأنه متأمل في معبد روحي لا ينقصه غير نجمة وقمر وأفق لا حدود له من الضباب...

عرفتها قارئة من الطراز الأول، بدأت مبكرًا بالاطلاع على آداب عظماء الكتاب في العالم منذ نعومة أظفارها، رسخت في مخيلتها مبادئ وقيم وأخلاقيات أقل ما يقال عنها ملتزمة حد القاع والنخاع كأنها لبوذي نقي، أو قديس نبي، أو معلم حكمة، أو راهب يضرب الأرض لا يلوي على شيء غير رحمة الله، حبه ورضاه.

وعندما جاء حينها، تفجرت موهبتها، انفلقت مخيلتها... فانبثقت تطرز أجمل ما في قلبها متسللة إلى أعمق وأدق مسامات أسرار نفوس بعض الرجال المختبئين وراء مسميات

كثيرة، منها الطاعة وأخرى العبادة وتطبيق الشريعة، في حين نجد داخلهم يئن بالنزوة والخديعة، وكثير من الناس هذا لا يدركون، أو أنهم من التصريح خائفون، وعلى الملأ ينطقون، كأن على رؤوسهم طيور لا يتحركون.

هناك... في عمق الأحداث نعثر على المفاجأة، الصدمة الدرامية التي بنيت على أساسها صرح وهيكل الرواية، تلك التي تجعل القارئ يلعن زمانه، وربما مكانه الذي ولد فيه، الأرض الطيبة التي حملته وعلى كتفها رفعته، لِما للإنسان من شرور وغرور غير واضحان، مختبئان في أعماقه لتأتي الكاتبة الرائعة صاحبة الرواية فتجسد لنا ما لم نره نحن وضح النهار، وهنا تكمن العبرة، الحكمة والدلالة الموضوعية من بناء الرسالة الأدبية التي تحت أيدينا اليوم، من خلال رواية "تحت غطاء الرب"؛ ذلك العنوان الذي يهز الأبدان ويشعر فيه الإنسان رهبة وعظمة الله ونحن تحت حماه ساكنون.

سيلاحظ القارئ النبيه بأن الروائية "نهاية بادي" تعمدت الاختزال والاختصار سعياَ إلى هدفها، ذاهبة إليه مباشرة كالسهم المنطلق الذي لا يعرف الالتواء طريقًا، وهي تعرف بالضبط ما تريد وما ينبغي أن يكتب وما يختزل؛ انطلاقًا من

مبدأ خير الكلام ما قل ودل، هذا جعل الكثير من النصوص الداخلية ترمي إلى الرمزية بتكثيف شيق غير سهل، ليستوجب التركيز الحاد أثناء القراءة والمتابعة، وقتها فقط يتعرف المتتبع سير الأحداث، وما مقصود هنا وهناك من إشارات لن يجدها طافحة على السطح مطلقًا، إلا إذا حاول الغوص لأعماق سحيقة تصل غالبًا قاع النص، وقتها سيجد ضالته وما كان يبحث عنه لأن اللؤلؤ لا نجده طافحًا على السطح.

أتمنى مخلصًا أن يجد القارئ الكريم ما وجدته من جمال النص، وروعة الموعظة في هذا النسيج الدرامي في أقل الصفحات عدد، ببلاغة جاءت محددة بكلمات لا تزيد عن حدها ولا تنقص ذرة، كمركب الماء والهواء، راجيًا للكاتبة "نهاية إسماعيل بادي" النجاح والفلاح في مشوارها الأدبي الذي بدأته برواية أبسط ما يقال عنها، صادمة تصهر الفولاذ.

هيثم نافل والي

أديب قاص وروائي عراقي مغترب

ألمانيا/ ميونخ – ٢٣ آذار ٢٠١٧

- 1 -

تتزلزل مبادئنا وقيمنا عندما

نكتشف رذائل مثلنا الأعلى

طرقات متواصلة على الباب كوابل المطر دون انقطاع...

نادت ماريا بعد أن تملكها الفزع:

- من الطارق؟

- أخوكِ أدريان.

- في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟! ما الذي أتى بك قاطعًا آلاف الأميال؟

- افتحي الباب بالله عليك، هيا... أنا لست وحدي!

شلت حركتها كلماته كمن يسقط من عُليّ لهاوية باضطهاد، أفكار متراقصة بتخيلات باحثة في الظلام عن زر الضوء بإجهاد، ترنحت تناءت الباب بالابتعاد، أصابعها إلْهَاد، أدارت قفل الباب بالكاد... تفاجأت بمنظر ابنها ممدد ملقى على الأرض دون حراك بإخلاد، صرخت كمُنِادٍ:

- ما به؟ إنه روحي وقرة عيني، ما الذي أصابه؟

ـ أراكِ كثيرة الأسئلة قليلة الفعل!، أما أذنتِ لنا بالدخول؟

حملته على صدرها مغيبًا لا يعي شيئًا، وضعته على سريره، جلست وأخيها قبالته ناحبة:

ـ ماذا جرى له؟

ـ لا أعرف... ربما فقد عقله، لا يصد أو يرد، حيًا وميتًا!

ـ ماذا تقول؟ انهمرت دموعها تسيل، غمغمت: لماذا يا إلهي؟ لم تكمل لي سعادة، فرحتي قانطة، حزني أكلني بشراهة، دموعي جفَّت وجسمي ذبل نحافة، مَنْ لي غيرك وابني وهبتني إياه وَهَابَة، ألم تبتليني بغزارة؟ ما اعترضت يومًا... ذنبي قدمت ابني لخدمتك حَبّابة، أحقًا لكَ وجود أم أنك وهمًا وحماقة؟ لو تسمعني انتشله من مصابه!

وما أن أتمت مناجاتها حتى لم يبقَ للغرفة سقف، عَلتها سماء زرقاء صافية يتوسطها نور أبيض بملامح لا تبدو للعيان بصوت هادر يهز الأبدان:

ـ إنني بقربك، لا تشركي بوجودي، اذهبي غدًا لزيارة ولدك وسترين...

فزَّت من نومها فزعة صارخة باكية، مبتلة الملابس كمصاب بالحمى الشديدة، الرعب سيطر عليها من هول رؤيتها، لم تستطع النوم مجددًا.

- 2 -

تعتز ماريا بجذورها الألمانية؛ تقطن في حي بناياته بان عليها القدم، ألوان طلائها متساقطة في الكثير من جدرانها، بأحجام مختلفة يسرح الناظر إليها في خيالات ليرسم صورًا ولوحات، تاركًا العنان لمواهبه الربانية... لم تكن شاهقة، تحتوي كل بناية على أربعة أو خمسة طوابق، وكل طابق يضم ثلاثة شقق؛ واحدة قبالة السلّم، الثانية على يمينها والأخرى على يسارها، إن حالف الحظ سكان المبنى يكون بداخله مصعد كهربائي، أجمل ما في هذه الأحياء الحدائق الواسعة الغناء في كل ركن منها.

ملاعب للأطفال، مراجيح، زحليقات، مكان مخصص لبناء أشكال مختلفة من الرمل، غالبًا ما تكون تلك الأماكن الرملية على شكل دائرة أو مربع كبيرة الحجم، ناهيك عن الورود والزهور بديعة الألوان عديمة الرائحة، أشجار غير مثمرة مزروعة بشكل متناسق متناغم، في أحد أركانها الواسعة ملاعب للمراهقين والشباب لممارسة هواية لعب كرة السلة أو كرة القدم بشباكها، سكان هذه الأحياء ظروفهم تقريبًا متشابهه لحدٍ ما.

أجانب قادمون من بلدان مختلفة طالبين اللجوء الإنساني أو السياسي، ألمان لا يستطيعون إعالة أنفسهم لأسباب مختلفة

كالمطلقات، أرامل، مرضى غير قادرين على مزاولة العمل... لذلك يحق لهم السكن في هذه البنايات لأنها تابعة لبلدية المدينة بعد أن تخصص لهم رواتب شهرية للمعيشة ومسايرة الحياة.

الشقق على نسق واحد إلا في المساحة، الأبواب متشابهة بيضاء اللون لا يحق للمؤجر تغييره، يفضي إلى ممر ضيق إلى يمينه غرفة واحدة للنوم للأسرة المتكونة من شخصين، يزداد عددها بتزايد أفرادها، إلى يساره حمام كبير يضم دورة المياه، عند نهاية الممر غرفة واسعة للجلوس ذو شباكين كبيرين يسمحان لأشعة وضوء الشمس بالدخول دون استئذان، في نهايتهما باب زجاجي على نفس نمطهما ليفضي إلى شرفة مستطيلة الشكل، عرضها لا يسع لأكثر من منضدة صغيرة وكرسيان، تطل على إحدى الحدائق، بجانب باب الشرفة إلى يساره باب يتوسط غرفة الجلوس بني اللون، عريض يفتح إلى داخل المطبخ، والأخير فيه متسع لطاولة طعام وكراسيها أيضًا، تاركة فسحة كافية للحركة بحرية، ذو شباك كبير على طوله يطلّ على الشرفة ذاتها.

• • •

ماريا الطويلة نحيفة البدن بارزة الصدر؛ التي تبدو لمن يراها بأنها استغنت عن وجبتين طعام وقللت الثالثة، ذات العينين الزرقاوين الصغيرتين كأزرار صغيرة في وجهها الأبيض، صافي البشرة

بأنف حاد مائل للطول، وفمها الصغير الدقيق؛ تمتلك إحدى هذه الشقق مع ولدها الوحيد توماس.

أتعبها تنقلها في العديد من الشقق بمدن كثيرة، متمنية أن تكون الأخيرة لتستقر معه وهو في الثامنة من العمر بعد طول معاناة، خاصة عندما تركها زوجها حين عرف بخبر حملها بفترة، وتوماس ما يزال جنين لم يكتمل التكوين في أحشائها، فرَّ هاربًا من مسؤوليته... ما أكثر الرجال الذين هم على شاكلته.

ورث توماس بعض صفاتها ومواصفاتها... بنية ضعيفة، وجه صافي البياض كلون قلبه، عيناه الخضراوان الكبيرتان، أنف صغير وفمٌّ جميل... هذا ما حبَّب فيه جميع جيرانه وأصدقائه... يقع المرء بحبه ما أن ينظر في وجهة باستسلام... هادئ الطبع، يدافع عن الحق بإقدام، ودود حلو المعشر.

في يوم قلقت أمه، توترت أعصابها، الوسواس أكل صدرها حينما تأخر عشرين دقيقة عن موعد عودته من المدرسة، الساعة الواحدة إلا عشر دقائق ظهرًا ومازال غائبًا، لم تحتمل الانتظار، ركضت تسأل عن سبب تأخره... بتوتر شديد وقلق مميت استفسرت من مديرة المدرسة مأخوذة:

- أين توماس، هل هو هنا؟ ماذا جرى، كل الأولاد عادوا إلا هو، أرجوكِ اخبريني... صارحيني؟ أنا أعرفه... إنه ولد محب ومطيع!

هدّأت المديرة من روعها حينما رأت ارتجاف يديها وارتعاش جسمها:

- تفضلي بالجلوس، اطمئني، إنه بخير، لم يصبه مكروه...

تابعت وتعابير وجهها لا تستدل منها إن كانت تنم عن رضا أم استهجان:

- تدخل في شجار بين طفلين أحدهما في السابعة والآخر في التاسعة من العمر، حاول الأخير السيطرة على الطفل الصغير آمرًا إياه برفع قلمه من على الأرض بعد أن أسقطه عمدًا، حين رفض طاعته انقضَّ عليه كنمرٍ جريح، ولولا تدخل توماس لكان الرب أعلم بالنتائج، ليس هنا تكمن المشكلة، إنه لم يكتفِ بفك الشجار وإنما لقّن الصبي درسًا، لكمه على فمه، جعله ينْزف من شفته على أثرها، فوجب عقابه ببقائه حصة إضافية في المدرسة..

بنفسٍ عميق أردفت:

- الآن يمكنه مصاحبتك، فقد أنهى فترة عقوبته.

لم تستغرب أمه فعلته هذه، ربما لن تكون الأخيرة، فمن يساند الصدق والحق لابد له من تحمل المصاعب... هو لم يطق الظلم ولن يسكت عليه لو كلفه ذلك عقوبة لا يتوقعها، أكملت ماريا تسر نفسها:

- الطفل صورة من صور الله على الأرض، يولد نظيفًا صافيًا كنبع ماء على قمة جبل، ورقة بيضاء تدون بها ما تشاء، سيكون

دائم أزلي حتى لو كان بخطٍ مائل، وإذا لطخت لابد أن يبقى أثر، علمها يقين بأنها من أورثته المحبة، الحق، التسامح، الرضا والتصالح مع النفس والآخرين ذلك نابع من حبها لله .

عندما أغلقا باب المدرسة وراءهما وفي طريق عودتهما للدار تجاذبت أمه أطراف الحديث معه... الدرب مبلط طويل، تقع على جانبيه مزارع واسعة غير مسيجة، تركت الأعشاب البرية تنمو فيها كما تشاء، تحدها أشجار بندق عالية كثيفة من أطرافها الثلاث الباقية في نهايتها، على جانبها الأيسر بحيرة اصطناعية صغيرة، تمتد إلى طرف الشارع الرئيسي للمنطقة وفي نهايتها اليمنى تقبع بناية شقتهم:

- متى يا حبيبي تكف عن تدخلك في مثل هذه المواقف؟

تابعت بنبرة حب حتى تستدرك عطفه:

- ستجلب لنا مشاكل ومصاعب لا حصر لها ولا عد.

فاز بإقناعها عن جداره رغم صغر سنه بعد سؤالها بحسم:

- هل أترك أحدهم يضرم نارًا في شقتنا؟

أجابته بالنفي محاوله التبرير، الموقفان مختلفان، إنه بيتنا، عندها تملكه الغضب مجادلاً:

- هل تقصدين لو كان سيضرمه عند جارنا أغض النظر وكأني لم أره؟

أتم جملته عند أخر درجة من سلمهم في الطابق الرابع، ردت عليه وهي تخرج مفتاح الشقة من حقيبتها اليدوية:
- كلا، طبعًا... لا.

أدارت المفتاح بقفل الباب فتحته ودخلا، بدأ الجوع يتسلل إلى معدتهما ويداعبهما، الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، أسرعت خطواتها باتجاه المطبخ ما أن تحررت من حذاءها ومعطفها عند الباب، بدأت بتسخين الطعام واضعة طبقين بيضاويين، احتلت رسمة زهرة عبادة الشمس الكبيرة الصفراء أحد جوانبه، على المائدة التي توسطتها شمعة حمراء اللون، أشعلتها، انبعث منها لهيب رقيق شع معه دفء شاعري وحنان لف جميع المكان جعله كتلة واحدة.

ما أن وضعت قدحي الماء الخضراوين اللون بجانب كل صحن ونادت ابنها حتى رن جرس الباب، هرعت مسرعة لفتحه... وإذا بمحمد صديق توماس ذي الثمانية أعوام أسمر البشرة، أخذت عيناه السوداء برموشها الطويلة جزءًا ليس قليل من وجهه، أنفه رسم بدقه، شفتاه الصغيرتان الممتلئتان أضافت له جمالاً كأنه أمير من العصر البابلي القديم، ابن جارتهما العراقية سارة، سأل وعينيه تبحث عن صديقه:
- هل توماس موجود يا خالة؟

أفسحت له المجال للدخول:

- تفضل... نعم.
على عجل أضافت:
- هل أنت جائع؟
- نعم... رد خجلاً.

همَّا بالدخول إلى المطبخ منادية ابنها ثانية بالحضور بسرعة، أومأت لمحمد بالجلوس، استدارت لتتعجل ولدها، تفاجأت بجلسته على سريره والدموع لمعت على خده الوردي كحبات الندى على أوراق الشجر مستفسرة عن السبب، بدموع متزايدة، أجابها:
- أنا آسف، لن ولم يكن في نيتي إفزاعك أو مضايقتك يا حبيبتي.

حضنته، ضمته إليها بقوة، قائلة:
- معك حق، إن لم نساعد بعضنا فلا نستحق الحياة.

وقفت، أمسكت يده بقوة تسحبه معها إلى الطبخ ممازحة، ضاحكة:
- سوف يأتي محمد على الأكل كله إن لم نلحقه.

فتحت خزانة الصحون، جلبت صحنًا ثالثًا وقدحًا لصديق ابنها، على الرغم من أنها لم تحسب حسابه اضطرت لتقاسمه نصيبها، واضعة لكل من الولدين أربعة أصابع سمك هي عبارة عن سمك بعرض إصبعين، مغلفة بطبقة من الطحين والبيض يتحول لونها إلى الذهبي الغامق بعد قليها، مع كمية لا يستهان بها من السبانخ، اكتفت باثنتين لنفسها، إنها وجبة توماس المفضلة... أكلوا بشهية،

كان الفرح والرضا سمتهم المشتركة.

وقف الصبيان حاملين صحنهما والأقداح إلى حوض الغسيل... قبَّل توماس شاكرًا أمه على هذه الوجبة اللذيذة مستأذنًا الذهاب إلى الغرفة الأخرى مع صديقه...

لم يملك الكثير من الألعاب ولا المساحة الكافية للعب؛ الغرفة كانت مكتظة بما فيها من أثاث، سريره يقابله سرير أمه إلى يمين ويسار باب الغرفة، التي يقابلها شباك كبير عريض، يخفف من وطأة صغر الغرفة، تحته منضدة صغيرة وكرسي استغلها للدراسة، يقابلها على جانب الباب يمينًا خزانة تضم ملابسهما بأبواب أربعة متوسطة الحجم، الأثاث كله مصنوع من الخشب المضغوط بلون تبني فاتح، مد بساطًا في الفراغ المتبقي من الغرفة مزخرفًا بورود ناعمة زاهية صفراء، زرقاء وحمراء من جميع جوانبه، تاركة الوسط فارغًا بلون تبني غامق يتناسب ولون الأثاث.

نظرت ماريا إلى الساعة المعلقة وسط الحائط بين السقف وباب غرفة الجلوس، وجدتها لم تتجاوز الثالثة ظهرًا، الشمس مازالت مشرقة، الجو دافئ والهواء منعش، سألتهما بود إن كانا يرغبان بلعب كرة القدم في الحديقة، نال اقتراحها على الفور إعجابهما، لبسا الأحذية والجاكيتات المطرية، مناولين الكرة لبعض، نازلين بنشاط إلى الحديقة دون منغصات.

جلست على ثاني أقرب الأرائك المنصوبة بزوايا مختلفة من الحديقة للولدين تحت شجرة تفاح كبيرة عامرة بزهر الثمر الذي لم يتفتح بعد، فتحت رواية عناقيد الغضب للكاتب "جون شتاينبك" برفع الفاصل الورقي لترحل مع بداية فصلها الثالث (أساب الطريق الخرساني يحف به حصير مفروش من أعشاب متشابكة، جافة متكسرة، رؤوس الأعشاب مثقلة بثمار ذات أهداب تعلق بفراء كلب...).

كلما صاح أحدهما (كول) تنبهت لوجودهما بعد أن رسما حدود للهدف بالحجر، أخذتها أحد هذه الصيحات عن عمق ما كانت تقرأه لترى ولدها يقفز عاليًا من شدة فرحته مرددًا مرارًا: (كول... كول... كول)، ما أن تلامس قدميه الأرض حتى يبدأ بالرقص والدوران... حينها تذكرت والحزن يحصد قلبها ألمًا؛ أباه الذي لم يره إلا في الصور.

- 3 -

غريبة طبيعة بعض البشر...
يوهمون أنفسهم بالحلم والأمل

لم تزل ماريا في جلستها تراقب الولدين حينما غزتها الذكريات، تلك التي غيرت حياتها يوم دخلت على سيد ماير مكتبه حاملة خطة عمل ذلك اليوم...

لحظتها هبَّ واقفًا كأنه يراها للمرة الأولى، لم يسمع كلماتها؛ نبض قلبه ودقاته المتسارعة زادته ارتباكًا وخجلاً، أنهت كلامها تنتظر جوابه، لم يأتها أي رد، إنها المرة المليون لتعاملهما كزميلين في شركة إعادة وترميم الشقق وصيانة أجهزتها للبنايات المتعاقدة مع شركتهما، ماير أحد هؤلاء الذين يقومون - بعد أن تقدم ماريا لهم العناوين والعطلات - بمهام إصلاحها.

يومها كان حزنها على وفاة والدها الذي فارقها منذ أقل من شهر واضحًا، وجهها عاري من المساحيق والأصباغ كما ولدت، شعرها مشدود كله إلى الخلف، ثوبها الأسود البسيط بخطوطه الرفيعة البيضاء وحذاء أبيض دون كعب، الاستغراب نطق بلسانها:

ـ ماذا دهاك! ألم ترني من قبل؟ أم أني قلت شيئًا غريبًا؟ منذ سنتين وأنا آتيك والزملاء بمثل هذا العمل... ما الجديد فيه؟

استدرك أمره، رد:

ـ أنا أسف، نعم... معك حق، لكنك اليوم تختلفين عن كل مرة، ببساطة، تأسرين العقل...

احمر وجهها خجلاً، أجابت:

ـ أشكرك على هذه المجاملة، لكني، كما ترى حزينة وحزني يكاد يقتلني على فراق أبي.

سالت دموعها دون إرادة بلا توقف بغزارة على خديها، وهي تسعى جاهده كظم حزنها دون جدوى... تقدم منها... ضمها إليه، قائلاً:

ـ هذه هي سُنّة الحياة كما تعرفين
على خطاها كلنا تابعين سائرين
وددنا أم أبينا مرغمين
للغد إننا مشدودين
وللعلي ناظرين
لا حزنًا عليهم ولا دمعًا به عائدين
هم عند ربهم مقيمين أمنين
نحن على الأرض سائرين عابرين

سحرها بكلماته، غمرها بحبه الملتهب... لم تتم علاقتهما شهرين

حتى أعلنا زواجهما على الملأ، تفاجأ زملائهم بهذا التطور السريع، توقعوا لها الفشل الذريع.

تجاوز طول ماير المتر والثمانين بقليل، رشيق، هادئ، قليل الكلام وفي الكثير من الأحيان يغيب عن محدثيه في إغفاءه، يصحو بعدها فجأة بسبب ميلان رأسه إلى إحدى جوانبه، يواصل حديثه كأن لم يفته نصفه أو ربعه بكلمات لا تمت للحديث بصلة ليقول إني معكم، عمره خمسة وثلاثين سنة، تكبره ماريا بثلاث سنوات، أورث ابنهما توماس ملامح وجهه.

بحكم عمل أخيها أدريان كمعالج طبيعي؛ كان أول من لاحظ وشكَّ أن زوجها لابد وأن يكون مريضًا نفسيًا، أخبرها وأضاف: في أرجح الاحتمالات أنه مستمر على علاج ما هو السبب في رد أفعاله غير المحسوبة تلك...

لم تصدق ولم تعر كلامه أدنى اهتمام... كيف ذاك وهي لم ترَ السعادة إلا معه، لم تعش من عمرها إلا الذي هو فيه، حاضرها وحلمها كان، كلامه أمر يطاع، طلباته أحكام تنفذ، كيف الاستغناء عن الهواء وشرب الماء، عن الطبيعة والسماء، سيكون الموت في الأبواب بالانتظار بلا نقاش أو جدال واستهزاء...

سنة بأكملها سعادة، حب، فرح كأنهما وُلدا من جديد... لم ترد ماريا أن ترى غير الذي تحب وتهوى، خيالها له صبي، أحلامها به تحيى، أيامها فيه تغنى.

• • •

ظلَّت ماريا لفترة تشعر بدوران مستمر عند أي جهد مبذول، لازمه فقدان للشهية جعلها تقلق، شجعها زوجها في استشارة طبيب بعد أن زاد أمرها سوء، في صباح يوم باكر اتصلت بالعمل لتستأذنهم بإجازة مرضية لمراجعة الطبيب؛ باستياء رضخوا موافقين، داهمها التعب فجأة بعد أن ضربت موعد عند الطبيب العام في الواحدة والربع ظهرًا... أسرعت قافلة إلى الفراش، ضبطت المنبه عند الحادية عشر واستسلمت للنوم راضية.

رنَّ المنبه... أسكتته، بقيت لدقائق مستلقية في الفراش متأملة، جلست لتناول الغداء في مطبخ شقتها الصغير، الشقة التي استأجرتها مع زوجها بسعر زهيد في إحدى مباني الشركة المتعاقدة مع الشركة التي يعملان فيها... شطرت الخبز نصفين داهنة أحدهما بالزبد، رصَّت شرائح اللحم البارد فوقها واضعة شريحتي جبن وشرائح رقيقة من الخيار والطماطم؛ قضت عليها دون شهية على عجل.

ارتدت بنطال جينز أزرق وبلوزة بيضاء بخطين أزرقين عريضين عند الصدر، على جانبها الأيمن زرعت وردة من الصوف نفسه بيضاء في وسط الخط الأعلى منهما، لبست قبعتها وقفازيها السميكين عند الباب، أزلقت قدميها في جزمة جلدية

جوزية اللون، تناولت معطفها وحقيبتها اليدوية ذات اللون نفسه، همت بالخروج، حينها تذكرت كارت تأمينها الصحي، بدونه لا يستقبلها الطبيب، أقفلت راجعة لغرفة النوم حيث وضعته من قبل كيلا تنساه!

نزلت مسرعة... في مركز المدينة التي تقطنها المكتسية بحلة بيضاء لنـزول الثلج المتواصل منذ ثلاثة أسابيع بانخفاض متفاوت في درجات الحرارة، دفعت بابًا زجاجيًا لعمارة شاهقة حيث عيادة الطبيب في الطابق الثاني منها، جلست بغرفة الانتظار بعد أن أبرزت كارت تأمينها الصحي للاستعلامات قبل نصف ساعة من موعدها، بداخلها تسلل الملل تدريجيًا لطول انتظارها، كان في الغرفة من ينتظر قبلها، سحبت مجلة علوم من على المنضدة التي أمامها مشدودة لصورة الغلاف، ثواني معدودة سمعت اسمها عبر مذياع بصوت رجالي يرجوها الدخول لغرفة الفحص.

- مباركًا لك الجنين.

قال الطبيب بعد التأكيد... بقفزة لم تتوقعها هي نفسها طبعت قبلة على خده مرددة:

- شكرًا لك... بلعت ريقها متابعة: إنه ثمرة حب عظيم.

ما أكثر أحلامها بأن ينمو في بطنها جنين، خرجت من عند الطبيب وفرحتها لا تحتمل، بودها كان الرقص والغناء وسط الطريق، لمست بطنها مرارًا كأنها تريد التأكد بنفسها، غزتها

شهية للأكل على حين غرة، جلست في أقرب محل يبيع المعجنات والخبز، طلبت عصير برتقال طازج وقطعة كيك بالفراولة، الحيرة شغلت تفكيرها، كيف تزف البشرى لحبيبها، رحلت بأحلام وتصورات لردة فعله ما أن سيسمع الخبر وهي تسر نفسها: ربما لا يحتمل الفرحة، لا يجب وأنا أخبره أن أتسرع، ما أعظم فرحتنا، هذا ما نتمنى ونأمل لحياتنا الأمثل، ما أجمل عائلتنا ستكون أكبر وأكبر خصوصًا مع من نحب ونهوى...

دفعت الحساب مودعة لتكمل طريق عودتها، عرضت في أحد المحال ملابس موضة للأطفال... أفسحت لخيالها يتأمل ويحلم بمولودها كيف سيبدو بهذه القطعة أو تلك! سأشتري أجملها وأغلاها، كيف لا!، لامست بطنها من جديد، هو أحب وأغلى من نفسي لي، سارت خطوتين بذهن سارح ولُبٍّ شارد، وعت وهي تصدم أحدهم كادت تسقطه أرضًا، تلعثمت من شدة الخجل بكلمات الاعتذار، أكملت دربها، فرحتها لم تقل ذرة... وهي قافلة إلى بيتها دخلت محل للشموع والزهور، ابتاعت أجمل باقة ورود وأرق الشموع...

- 4 -

الحيـــاة لا تعـــاش بدون حلـــم أو أمل
نـــزولاً ، صعـــودًا ، بفكـــر أو صـــور
ننـــام، نصحـــو ، نصبـــو لغـــدٍ أفضل
نزرع، نحصد فبغيره كم منجل انكسر اِنْفلّ؟

يوم عرفت ماريا بنبأ الحمل كانت السماء صافية لا غيوم أو ثلج في الأفق نسمات برد تلفح الوجه، أعمدة الثلج تدلت من الأغصان بأشكال رسمت صور من الخيال، بحيرات طمرت بطبقة صلدة منه.

الكل يقضي حاجته على عجل إلا ماريا لم تشعر بالبرد، سارت على مهل، دخلت البيت بحب وأمل، أشعلت ما جلبت معها من شموع، فرشت الطاولة بما لذَّ وطاب وسَّطتها بباقة الورد، جلست بقلق وأعصابها من فرحتها بتوتر، لم تطق تنتظر قدوم زوجها بأحر من الجمر، دخل بعد معاناة أجهدتها من الصبر، طوقته بيديها، انهالت عليه بالقبل، سألها ما الخبر؟، أجابته:
- لم أعد أحتمل فصدري من ثقل السر سينفجر.

فاجأته رومانسية الأجواء وقلبه اعتصر، كأنه عرف السر بما حمل والهم سكن الصدر، دخلا المطبخ، جلسا بدنو وقُرب... أخذت يده بودٍّ وسحر، وضعتها على بطنها دون كدر، قالت بلا حصر:

- هنا ثمرة حبنا منذ شهرين نما، سيكبر.

ما توقع حصل، صدمها ببرودة جوابه:

- هل أنت متأكدة؟ كيف يعني؟ ألم تأخذِ الحيطة والحذر؟ كيف لك التقرير؟ لا... لابد أنك مخطئة، تحبين المزاح، قولي الحقيقة وما حصل، أستحلفكِ بالله والأنبياء والرسل.

بخيبة تراجعت للوراء قليلاً، أصبح رأسها أثقل بما حمل، أسندته بكلتلا يديها كأنه سيسقط، الصمت ساد لمدة دقائق مرت كأعوام من عمر الزمان، استدركت ما حصل والدموع كالسيل تنهمر، بصوت حزين مرتجف استخبرت:

- ألم تود أن يكون لنا ولد، بل أولاد؟!

أخذت نفسًا عميقًا تابعت:

- أين حبك لي إذن؟ هل كان حلم، وهم أم تراه ضربًا من خيال وجل؟

إنه أضعف من أن يراها بهذا الحال بحب مفتعل، رد:

- بلى، لا جدال فيه أو شك لكن الوقت مبكر عليه، إننا متزوجان منذ سنة، مازال العمر كله لنا، لِم الاستعجال إذن؟

كلماته هدّأت ريح الغضب، أشعلت بصيص نور أمل، بحب ملتهب:

- حبيبي، لا حكم لنا على مشيئة الله، لم أحسبها أو أخطط لها.

قبلها قبلة سريعة لترضيتها مودعًا:

- لابد لي من الذهاب... هناك عطل في أحد أجهزة المباني يجب إصلاحه.

الساعة السابعة مساءً... هي تعلم كل العلم لا وجود لعمل في مثل هذا الوقت.

زاد غيابه بالعمل، ما أن تطأ قدماه الدار حتى تركض مسرعة خارجة بعذر واهي أو بعدم.

صعب عليها الاختيار، بين جنين في الأحشاء ينمو ويكبر، وحبيب أعمى القلب والبصر، علمها يقينًا لو تخلت عن جنينها وهو أخر أمل لا محال يموت معه حبها للأبد، صراع أيام، أسابيع تاركها للقدر، ليال طوال هجرها النوم وحلَّ القلق، توسلات، خصام ولا حتى كلام نفع، اليأس يموت، ينتحر إن رأى بطنها كبر، معاناة، خليط مشاعر بين حزن وفرح، زيارات طبيب، شكوى، سماع نصح، ثابت الحمل والقرار اتخذ، زوجها من عمله انتقل، انقضى شهرها الرابع في الحمل، عرفت أن الجنين ولد.

• • •

يوم ربيعي، أزهرت الأشجار، الأزهار والخَضار في كل مكان انتشر، عادت الطيور لأعشاشها بعد رحلة عذاب وسفر، زقزقت العصافير، يجب أن خاتمة للأمر، وما شاء الله فعل قالت نفسها تسر.

طلبت من ماير منحها من وقته ساعة زمن وافق مرغمًا وهو يتحاشى إلى بطنها النظر، جلسا كالغرباء ساعة غروب والشمس مودعة السماء بخجل، حمرة نار خدودها في الفضاء انتشر، تاركه ضوءها ينسحب وراءها ببطء ووجل، النسمات داعبت خصلات شعرها القصيرة منّزلة إياها على عينيها بمسكة تحدي من يدها أعادتها إلى رفيقاتها، بعد صمت حدثته بصوت ودود محب:
- ما الذي جرى يا ترى؟ لِم كل هذا الابتعاد، الجفاء والعذاب، ألم نكن يومًا أحباب؟

- بلى... صحيح، اعذريني فالموضوع ليس بيدي، فأنا لا أقوى الاستمرار، سيكون كل ما تأمرين بالانتظار.

غزت الدموع عيناها، قلبها رد بلسانها:
- لا... لا أريد من هذه الدنيا شيء غير ابننا ولا سواك.
بصعوبة كظم مشاعره، بإصرار أجاب:
- هذا محال، إنك من اختار، علي الامتثال، وجب الانفصال.
مزق الحزن بألم داخلها وعلى ملامحها بان:

- اذكر لي سبب واحد لذلك... أرجوك، فإني لا أطمح بالأكثر؟

أجابها بسرعة واختصار:

- لا... لا يوجد، هذه رغبتي، عليك الاحترام دون جدال...

كمن يرمي حملاً عن كاهله طالما أضناه، زاد:

- وجب الرحيل الآن، عندي موعد لا أحسن البقاء، الانتظار.

هم بالذهاب وأضاف:

- أرجو أن يتم ذلك ومازال ابنك في بطنك ينام.

• • •

تركها فريسة الأوجاع والألم... استرجعت كل ما حصل ببطء للاستيعاب.

تشغل دواخلنا أسئلة كثيرة من الأحباب، تتجلى بعد أوان، لتصبح طي النسيان، نال ما تمنى وأراد، سريعًا كان هو الانفصال، انتقلت من مكان لمكان، عاشت حزنها، انكسارها وحدها في سكنها الجديد غرفة بمرافقها، راضية بنصبيها قانعة، بعدما أعياها وأتعبها طرق الأبواب لمعرفة سر حبيبها الهارب بإجحاف وجنون، اهتدت على عنوان طبيبه النفسي الذي له معالج، أدهشها لم تلحظ ما كان عليه ظاهر واضح، إنها ليست الأولى ولا ستكون الأخيرة، لها في المعاناة رفيقات كثيرات، يحب، يتزوج، يفر هارب إلى أخرى ما أن يعلم أنها حامل.

أحلى لحظات عمرها وهي تحتضن ابنها بعد صرخة ولادة، قليل ما عانت، لو استطاعت لفعلتها مرات ومرات ببساطة، كان ذلك عند الثانية بعد منتصف الليل، آلام قوية عصرت بطنها عصرًا ثم توقفت، تكررت مرات ومرات اتصلت بالإسعاف شارحة وضعها، هي وحدها ولا تملك سيارة، بمرور عشرة دقائق قرع جرس الباب، حملوها وحقيبة ملابسها على نقالة بعد إجراء بعض الأسئلة الروتينية كاسمها، عمرها، أي تأمين صحي، الدكتور المختص، وأي شهر حمل تمت، أجابتهم والخوف تمكن منها أنها بشهرها الثامن.

حاول بفشل دكتور التوليد تثبيت الجنين ما أن تأكد من صحة معلومة الحمل من تسكين الألم بالمحاليل، التزام السرير، متابعة حالة الجنين عن طريق جهاز قياس ضربات قلبه وآخر لقياس فترات ما بين الطلاقات، والمراقبة كل نصف ساعة، ازدادت آلام الولادة لتصبح عند الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي كل عشرة دقائق ثم خمسة، علم الطبيب بهذا، أمر بإنزالها صالة العمليات لإجراء عملية قيصرية، أصابها الرعب، لا أخيها قدم ولا أحد معارفها حضر، واجهت وحدها مصيرها المحتوم كما كتب الله لها.

أنزلت بالمصعد إلى تحت حيث صالة العمليات مرتدية صدرية بيضاء مفتوحة من الخلف مرتبطة بشريط عند العنق فقط، فصلوا

منطقة الصدر عن بداية بطنها بفاصل قماشي أخضر سميك، خدرت تخديرًا موضعيًا، أحست بالمشرط، ضغط متتالي بالأيدي من أعلى بطنها إلى أسفل، شعرت بثقلها نزل، سألت بتعب:

- هل الجنين في خطر؟

أجابوها والفرح بالانتصار بينهم انتشر:

- بخير ولحضنك انتظر.

حضنته والدمع انهمر، لحظات وفي الحاضنات أودعوه، غابت عن وعيها مجبرة، ساعات وصحت إليه سارت بمهل وهوادة، بعد ثلاثة أسابيع مع أمه ودعوه... شهر بعد شهر كبر، عند السادسة من عمره مسيرة البحث عن شقة حضر.

وإذا بها تعي على نفسها وهي مازالت في جلستها بيدٍ صغيرة تمسك كتفها تشدها وتهزها ترجعها إلى واقعها من ماضيها:

- أمي، أمي أين كنت بخيالك سارحة؟

بنظرة ذهول وعجب وهو ماسك الكرة بكلتا يديه، سألها محمد:

- هل أنت بخير يا خالة؟

أخذتهما بحضن قوي وفرحتها بابنها يسع العالم بأسره.

انسحبت الشمس من الأفق ساحبة خلفها أخر خيوطها معها، تاركة وراءها السماء بحلتها الزرقاء، خلدوا للراحة، للرخاء بعد جهد وعناء .

- 5 -

اجتمعت كل الأديان
على محبة الله والبشر

أرعبها رنين جرس الباب المتواصل دون انقطاع؛ فالساعة لم تتجاوز الخامسة والنصف فجرًا، الشمس لم تبزغ خيوط أشعتها على الأرض بعد، ركضت ماريا نحوه وهي تسأل:

ـ من الطارق.

أتاها صوت طفل باكٍ بأنفاس لاهثة:

ـ أنا محمد يا خالة.

فتحت الباب، أخذته بحضنها بود صادق وخوف ظاهر، نبرت:

ـ ماذا هناك، ما الذي حصل؟

بدموع لم تنقطع:

ـ أبي... أبي... ضرب أمي ضربًا مبرحًا، لم أفهم لماذا!، سال الدم من أنفها وفمها، حاولت يا خالة دون جدوى التوسط بينهما ولكنه لم يرني، دفعني، رماني جانبًا كأنني خرقة بالية.

ضمته لحضنها بقوة مهدئة ماسحة دموعه المتراكضة من عينيه

الجميلتين بعطف وحنان:
- لا تخف يا صغيري إنهما كبيران، سوف يتوصلان لحل، كما تعلم أبوك يحبها.

أخذته من يده بحب، أزاحت غطاء سريرها داعية إياه للنوم وعدم التفكير بما حدث، سحبت غطاء من الخزانة ووسادة، اتجهت إلى غرفة الجلوس، استلقت على الأريكة مشغولة البال بجارتها أم محمد، حاولت النوم دون جدوى، سمعت صوت نحيب صادر من غرفة النوم... أسرعت متوقفة عند سريرها الذي شغله محمد، ثنت رجليها تحتها على الأرض بجانبه راجية إياه برقة وحنية:
- ما فائدة البكاء يا حبيبي... لو رأتك سارة أمك بهذا الحال لزاد همها وفكرها انشغال، صبرك علي قليلاً، سأحاول معرفة سبب الخلاف والتدخل لحله قدر المستطاع من أجلك .

نظرت إلى ساعتها اليدوية... أعلنت أميالها عن السابعة إلا ربع، نهضت وهي مازالت تمسك يده الصغيرة الطرية بقوة وعطف كعصفور مختبئ من ثلج الشتاء في عشه، ملاطفه:
- هيا لنوقظ توماس، أتعلم أنه يعشق النوم؟ لو تركناه لبقى إلى الغد نائم.

هجمت عليه بلطف مداعبة مشاكسة:
- هيا... يا كسول انظر من هنا؟ إنه صديقك...

وهي تغمزة بعينها:
- أتاك خصيصًا ليوقظك ويفطر معنا.

فرك عيناه بيديه عدة مرات غير مصدق نظره، لم يتعود مثل هذه المفاجأة، سأل بفرح مستغربًا:
- هل اليوم عيد؟

ردا عليه كأنهما اتفقا وهما يدغدغانه من كل مكان بضحكات:
- نعم، ليكن ذلك...

أضافت أمه بعد أن أجهدها اللعب جالسة بجانبه:
- لنعش كل فرحة تأتينا دون اعتراض وتفكير، لا علم لنا متى ستكون التالية أو الأخيرة.

نهض توماس بنشاط وبصباح الخير نطق.

ناولت صحنًا بيضاويًا كبيرًا كانت قد وضعت فيه شرائح جبن أصفر، ثلاثة قطع جبن مغلفة مثلثة الشكل، قطعة كبيرة من الزبد وأخرى من الجبن الأبيض بشكل شهي لمحمد راجية بوضعها على المائدة، أخرجت من الثلاجة بيض، وضعت مقلاة صغيرة بقبضة سوداء على الموقد، أشعلته بعد أن أضافت قليل من الزيت فيها، سائلة :
- كيف تحب أكل البيض، عيون، أومليت أم سلق؟ صديقك يأكلها على شكل عيون.

- أحبها مثله فهو صديقي.

ناولت توماس صحنًا كسابقه فيه أنواع مختلفة من شرائح لحم باردة، قلت البيض بعد أن سخن الزيت، تركته يقلى جيدًا، وضعت كأس مضلع الشكل بحجم كف اليد بداخله مربى المشمش وشطائر الخبز، أغلقت الموقد بالضغط على الزر منحية المقلاة جانبًا، أخرجت ثلاثة صحون صغيرة من الخزانة سائلة وهي تضع أمام كل واحد صحن عن أي نوع من الشاي يرغب احتساءه...

بذهن سارح أجابها محمد:

- ينسون .

بفم ممتلئ أجابها توماس بصوت يصعب على السامع فهمه:

- نعناع، بلع ريقه مع ما مضغ من طعام مكملاً: يا حبيبتي.

نهرته بأن يكف عن الأكل والانتظار حتى إكمال إعداد المائدة، شبكوا أياديهم ببعضها وهم يهزونها، غنوا (بيب، بيب، بيب، فير هابن أونس ليب)، بمعنى (بيب، بيب، بيب، نحن نحب بعضنا) بضحكات من القلب بدأوا يومهم، رجتهما بإعادة ترتيب المائدة لحين عودتها لدقائق، عند باب الشقة المجاورة لشقتها مدت يدها على زر الجرس ببطء ثم سحبتها مرات، رتبت جمل ولغتها، حسمت أمرها وأخيرًا ضغطت على الجرس...

أفزعها وجه جارتها سارة المتورم، انتفاخات تحت العينين، عند

الشفتين أثر دم جاف على مناطق منهما، رجعت خطوة إلى الوراء... تماسكت، دنت، ضمتها إليها والدموع تساقطت منها دون إرادة، تمتمت بصوت مرتجف:

- هل لي أن آخذ ملابس وحقيبة محمد المدرسية؟ هو عندي، لا تقلقي إنه بخير سأتولى أمره اليوم، اخلدي للراحة... لنا كلام فيما بعد...

نطقت سارة، خرجت الكلمات متعثرة من فمها:

- شكرًا على كل شيء...

أخذت نفسًا عميقًا بحزن ممزوج بالخجل:

- لو كان لي أخت لما فعلت ما تفعلين! لثقتي بحبك لمحمد... بعثته عندك بلا تردد.

تركتها عند الباب بعد انتظار متوتر... عادت جارتها حاملة بيدها كل ما يحتاجه ابنها، أخذت ماريا ما كان بيد جارتها رغم ابتسامتها المرسومة على وجهها بان حزنها، مودعة على أمل اللقاء في ساعات لاحقة معهما طالبة ذلك بإلحاح.

أعدت الولدين للمدرسة بعد أن وضعت في حقيبة كل منهما شطيرتي جبن ولحم بارد، تفاحة كبيرة حمراء، قنينة مياه معدنية متوسطة الحجم، ودعتهما بقبلة وحضن قوي، راجيتهما أن ينتبها لنفسيهما جيدًا، أوصدت الباب خلفهما وهي تسير بطريقها إلى

المطبخ كانت يديها تضعان وتعيدان ترتيب كل شيء إلى مكانه.

سخنت ماء أخرجت كيس شاي من علبته، وضعته في كوب، أضافت عليه الماء المغلي، انتفخ الكيس كأنه سينفجر، اختلط بالمحتوى ليخرج بلونه الأسود الجديد، سحبت كرسيًا باتجاه الشباك لترى الشمس تشق السماء بضوئها الساطع معلنة بتحدٍ وجودها... أمسكت كوب الشاي بيدها وأعمدة البخار تتصاعد منه عموديًا، متموجة تاركة الهواء يلاعبها كما يشاء، أخذت رشفتها الأولى بحذر بعد أن أزالت الكيس منه، الأفكار لم تهدأ في رأسها، الحزن سكن جوارحها، رافضًا مفارقة مخيلتها وجه جارتها، ناجت:

كم من العمر سَنتم؟

الحياة لمن ستدوم؟

كل يوم نقضي بحزننا عليه سنندم

السنون على وجهنا تنم

شقاء، آلام والفرح سيدوم

ربنا وهبنا عقلاً وفكرًا ننعم

قال: أحبوا، تسامحوا، لكننا بِشَرّنا حمم جمرًا نرجم

انسكب الشاي على بنطالها الجينـز الأحمر الغامق، من كوبها الذي مال بحركة لا شعورية بيدها وهي شاردة الذهن، انتفضت واقفة، صارخة، محدثه نفسها:

- اللعنة... أف... حمدًا لله... لم يكن ساخنًا جدًا.

بعدما فكرت ماريا في وجبة طعام الغداء وجهزت ما يناسب عند العاشرة صباحًا؛ زارت جارتها ووجهها ينم عن حزن رغم محاولتها إخفاءه وداخلها كله أمل.

- تفضلي...
بخجل نطق علي أبو محمد ووجهه بالأرض ثبت...
- شكرًا...

ردَّت وهي تهم بالجلوس قبالته إلى جانب سارة، في غرفة الجلوس التي توسطتها منضدة رخام بيضاء بنقاط ذهبية ومثلها سوداء مدببة من إحدى جوانبها، تاركة جانبها الآخر عريض على شكل سبعة منحنية للداخل، خلفها أريكة يسندها حائط الغرفة حيث تجلس سارة وضيفتها على جانبيهما كرسي مصنوع من نفس نوع القماش، قطيفة سوداء لامع، خطت عليه ثلاث خطوط متلاصقة؛ ذهبي، أحمر، فضي، ناعمة في أماكن مختلفة.

الفسحة بين الأثاث لا بأس بها للحركة بحرية، أسند الحائط المقابل معرض خشبي كستنائي غامق اللون، جلست على أحد رفوفه زجاجة سميكة شخصَ جهاز التلفاز عليها، نهاية المعرض تفضي إلى باب المطبخ... التصميم واحد في جميع الشقق إلا عدد الغرف اختلف، كسرت ماريا هدوء الصمت بكلماتها:

- إني آسفة على تدخلي إن سمحتما لي بذلك طبعًا، كما تعرفان لابد من الخلاف في وجهات النظر بين كل البشر الذين تربطهم علاقة ما، إنه صحي في الغالب، لنجد حلول لأمور كثر، بشرط ألا تصل لحالتكما هذه، عندها ستكون معضلة يصعب حلها، ما حصل سيحفر بذاكرة محمد أثر إلى الأبد إن أحسن التعايش معه، هل بالحياة أحب وأسمى من أولادنا لنا؟

احمر وجه علي الأبيض صافي البشرة الملتحي، خرجت سارة من صمتها مؤيدة للتعبير عما في داخلها قبع، بكلمات خرجت من فمها بصعوبة:

- قلبي ينفطر على ابننا، نقاشاتنا المحتدة النارية لا تأتي إلا وهو هنا، هذه المرة تطورت للضرب، شتم والله أعلم ما غدي إليّ حمل...

نظرت لماريا بخجل، الدموع ترقرقت في المقل:

- أيقظتني في الساعات الباكرة لمسات يديه الرقيقة، حضنه الدافئ، قبلاته المحمومة، استسلمت راضية محبة كيف لا...

سرحت قليلاً، تابعت:

- من لي غيره؟ ولا أفكر بغير هنا محل، أهلي كل منهم في قطر وصل، العراقيون وضعهم لهذا حل، كتب لنا قرارًا بشأننا اتخذ... سجل، شئنا أم أبينا بغيره محال، أصبحنا خليطًا من جميع الدول، منا من وقف لأبنائه سند ومن سقط بالوحل. أخذت نفسًا عميقًا

وتابعت:

- والله زوجي هو حبي الوحيد الذي عنه لا أحيد، أصبحنا جسدين بروح واحدة لا تفصلها حدود ولا تقيدها قيود، تنفسنا الهواء معًا شهيق زفير بلا عقد، استرخاء بحب بفرح وسعد، رأسي على صدره رقد، يديه تلاعب خصلات شعري بسرور ومرح سرد:

- حبيبتي،... هل رأيتِ أصدقائنا الجدد؟ ما أجمل الحجاب على زوجته، لذا، ارتأيت أن ترتدي منذ اليوم الحجاب أنتِ أيضًا إذا أمكن!

- هل أنت جاد فيما تقول؟ منذ اليوم! كيف يعني!... لم تترك لي فسحة الاختيار، وإن رفضت؟

نظرت إلى ماريا بإحباط، متابعة:

- عهدت زوجي الطبيب إنسانًا متحرر التفكير والطموح، رماني على أرضٍ صلدة من أعالي، انتفضت وبغير شعور أجبته، كلا... شعوري كإنسان حر خلقه الله على الأرض جعلني أتمسك بما قلت وأكملت: لن أفعل، كيف تقرر لي دون نقاش أو حوار؟ حتى إني لا أعرف كيف وصلنا إلى هذا الحال! هجرنا وطننا صحيح لكن إيماننا لم ينقص أو يزيد.

مسحت دموعها، استرسلت:

- ظني السبب يكمن في تعرفنا قبل كم شهر على عائلة عراقية قادمة حديثًا من سوريا عن طريق هيئة الأمم المتحدة، كما تعلمين

أنهم بحاجة لمن يأخذ بيدهم، الزوجة محجبة كلامهم كله ينصب في هذا المضمار إنها حرية شخصية، العلماء غزو الفضاء بنوا هناك ثكنات، نحن نزايد على إيماننا بقطعة قماش، بدأت تصرفات زوجي الانطوائية، كثر ذهابه للمسجد، كنتُ فرحة لذلك دون شك، القرب لله يعطيك الأمان وراحة البال. إذا أفاجأ به اليوم يمد يده، ينهال ضربًا...

بلعت ريقها بعد أن جف حلقها:

- شتم، سباب، زاد بكاء محمد بعد أن دفعه أبوه جانبًا، هرعت إليه، ألبسته دون تفكير وبعثته لكِ... آسفة لإزعاجك في مثل هذا الوقت لم يخطر ببالي وقتها غيركِ لأجنبه منظر كهذا، سماع ألفاظ أنا نفسي لم أعرفها من قبل.

ناحت بحرقه وألم:

- عمر جيل بالقهر كتب في عراقنا... بغدادنا كل شيء ازدهر، الإيمان بالقلب ضمر أو ظهر، لا أسأل من أين وإلى أي مذهب فلكل واحد انصهر... مسلم... مسيحي... صابئي أو أي دين ندر... حبنا لله وحده نذر... ما عمر الرجل للمرأة في وطني بالرذيلة نظر، موجة حقد على بلادنا وأغلال من كل صوبًا انحدر، أولادنا موسى... يحيى... عيسى... محمد... لمستقبل مشرق بصر، زوجي يوم عرفني ولأهلي حضر، إيمان قلبي لم يقسه بطول قماش أو قصر...

أجهشت في بكاء متواصل، أخذتها ماريا الجالسة قربها بحضنها مهدئة بدموع متساقطة.

رفع زوجها عليّ رأسه، الدموع ترقرقت في عينيه أبت النزول، بعد صمتٍ نطق:

- أنا أسف، استفزني ردك، وقتها لم أتمالك نفسي كأني مغيب، حدث ما حصل، لكن هذا لا يعني بأني قد تنازلت عن أمري، إنه هويتي وديني.

نظرت سارة بعينيها الوارمتين المحمرتين من البكاء بتعجب متسائلة:

- ماذا جرى؟ ألم نكن عراقيين مسلمين؟ هل الحجاب أصبح عنواننا! كنا كفرة والآن مؤمنين، ربي يعرف ما بقلبي هو أقرب إلي منك، لا تزايد على ديني إذن!

تدخلت ماريا بحسن نية:

- الله حب، تسامح، رضا، تفاهم، مودة، رحمة، لا كره وصراع وجراح ودماء... إنك طبيب وتعلم للإنسان إمكانية لكل شيء يوضبها حسب طاقته، وإن ضغط عليه ورضخ مجبرًا لسبب ما يتحول للنقيض بعد إزالة السبب، وفي بعض الحالات بدون ذلك...

واصلت:

- حب الله لا يحتاج إثبات إنه لك بداخلك، لا حاجة الإعلان عنه، خصوصًا أمام أناس تحبه ربما أكثر منك، بالتفاهم والود نحقق

المعجزات، من أجل ولدكما... فكرا به... إنه أحد نعم الرب عليكما، سيكون باستضافتي حتى تتعافى أمه...

نهضت مستأذنة لتحضير وجبة الغداء بعد أن دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ظهرًا.

- 6 -

أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية معاكسة توماس بنورها الساطع مقتحمة نومه في سريره، غطَّى رأسه محاولاً تجنبها دون جدوى، انقلب مرارًا، لاحقته بحزم وإصرار معلنة عن يوم جديد، دخلت أمه منادية:

- حبيب حياتي... انهض... هيا يا كسول، الفطور جاهز، فيه كل ما تشتهي، سأجهز عليه إن تأخرت .

أسرع في النهوض، اغتسل، ركض وكأن أمه لم تبقِ له شيء، طبع قبلة على خدها نشد:

- صباحكِ نور وسرور... أوه ...واو...فطور شهي حقًا... لا يعوض .

ضحكت ماريا ملاطفه:

- صباحك أجمل يا محتال، إني أرى في عينيك شيء ما... قل ولا تتردد.

وهو يسحب كرسيه للخلف كي يجلس:

- لي عندك رجاء... أتمنى ألا تعتذري بأي عذر.

بفضول متزايد ودهشة:

- ما هو؟

بتوسل:

- أرجو أن تأتي معي للكنيسة وإشعال الشموع...

ترددها على الكنيسة عند ضيق صدرها وفرحها جعل ولدها يقلدها منذ الصغر، فما أن يرى إحداهن حتى يرجوها ساحبًا دون سماع رد أو جواب للصلاة أو الجلوس براحة بال ورضا ونفس محبة.

بفرح غامر أجابته:

- ما أجمل رجاءك كطيبة قلبك الصغير لكنه بحبه كبير.

سحب توماس باب الكنيسة العملاق بجهد وخجل، جلسا للتأمل والدعاء بجلل، كليهما للرب بخشوع ابتهل، الملائكة من حولهما حراس من كل صوب حضر وقبل، شد على يد أمه مبتهج بوجل، الشموع في ركنها ضياء وسنا اشتعل، تمثال مريم حاملة عيسى نورًا علا ووَصَلَ، ضعيف متساهل أو متكبر ومتسلط الكل لا محال للقبر نزل، اكتشاف علم وتطور البشر لله الكل قَفَل، خرجا وصدرهما منشرح مغتبط بجذل، عيونهما ترقب للغد بأمل.

رائحة لا تقاوم... تتسلل للأنوف يسيل اللعاب لها...

- ماما تصوريها كبيرة وساخنة...

قال توماس وعقله لم يكف التفكير في نهمها، قضمها بشهية كمحروم لمدة أسبوع عن الطعام رجليه تسبق جسمه لسرعتهما،

يعرف جيدًا مصدر هذه الرائحة، إنها سيارة أكل متنقلة لبيع- الشاورما - تأتي كل يوم ثلاثاء من الأسبوع في نفس المكان لصاحبيها التركيان؛ الزوج بوجهه البشوش الطيب المتسامح بهيئته الوسيمة، والزوجة المكتنِزة اللحم بوجه دائري أبيض عريض كطبق دائري ذي قلب رهيف، ذاع صيتهما في أرجاء المنطقة لطيبتهما وطعامهما اللذيذ النظيف، أخذ توماس محله في الصف الطويل المنتظر، لم يعد يحتمل الصبر، لعب بطفولة قافزًا يمينًا يسارًا ليشغل باله بغير الأكل، الطابور يتحرك بمهل، بعد جهد بالصبر والعناد وصل، قبل أن يُسأل نطق:

- مع سلاطة، لبن بغير فلفل حار وكثير من البصل، الثانية مع كل ما سبق من المقبلات، لا تغلفهما من فضلك سنأكلهما الآن...

أخذهما لم ينتظر أمه لتحاسب، جلس على أريكة لونها قد بهت من تقلبات الجو مقارنة بالأخريات، منصوبة بقرب حديقة زهور جميلة على بعد أمتار من سيارة الأكل... جلست هي ملاصقة له، أكلا بشهية حتى نصف السندوتش حدَّث أمه المشغولة بالأكل :

- لقد شبعت يا أمي... ماذا أفعل بالمتبقي؟

أجابته بفم نصف ممتلئ :

- اذهب واطلب من الرجل أن يغلّفها.

عاد متخذًا مكانه بقربها، وضع كيس بلاستكي أبيض صغير في داخله تكور بقدر كرة صغيرة مغلفة بورق السليفون في حضنه،

تذكَّر:

- أرجو ألا تنسي... لدي اليوم تدريب كرة القدم في النادي.

أبعدت السندويش عن فمها قليلاً وردت:

- أنسى! كيف! إنك شاغلي الوحيد في الدنيا، مازال هناك أكثر من ساعة على الموعد، دعنا نبقى هنا قليلاً بعدها نذهب لتغير ملابسك وأخذ حقيبة ملابس التدريب، ما رأيك؟

سارا في الحديقة... عبق تفتح أزهار الأشجار يملأ المكان، المراجيح كلها محجوزة... تقدم خطوة للانتظار، سمع صوتًا رقيقًا عذبًا مخاطبًا:

- هاي توماس كيف حالك؟

أمعن النظر... طفلة ضعيفة شاحبة الوجه شعر رأسها حليق، بان ذلك رغم الربطة التي وضعتها عليه، سألها باستغراب:

- منْ... هل حقًا أنك أنكرد؟ ماذا أصابك؟

انهمرت الدموع من عينيها، هرعت هاربة لحضن أمها الواقفة على جانب ليس بعيد، الشهقات تعالت دون انقطاع، جرى ورائها مأخوذًا محدثًا:

- أسف... لم أنوِ البتة إزعاجها، هل لي أن أعرف سر كل هذا البكاء؟

أجهشت بالبكاء مجددًا بعد صمت قليل، أجابته أمها وهي تمسح

دموع ابنتها مهدئة بحزن شديد:
- إنها مريضة يا عزيزي.

كاد الفضول يقتله... لم يتوان عن تكرار السؤال:
- وأي مرض يفعل هذا؟

تدخلت أمه بحنكة وذكاء:
- لقد فرغت إحدى المراجيح ... إني أرى أحدهم يتقدم ليشغلها، هل رغبتك بالتأرجح مازالت قائمة؟

تردد قليلاً، هرع مسرعًا، ركبها، حرّكه فضوله بشدة من أعماقه، عينيه ظلت شاخصتين وداخله يتوق لمعرفة ما يدور بينهم من حديث جاد وأمه متحمسة معهما.

ذكاء الإنسان يجعله دائم البحث والاستفسار... الكون أو الفضاء وما في باطنها الأرض من أسرار، عقد أو أمراض البشر وما يحمل من أشرار، عذاب أو قضبان وسجون وما تحمّله الأحرار، مسميات أو ألقاب وكراسي ما حرّفته عن مسار، هدفه واضح كشف ما خفي للأنوار، الرقي والعلي بالفنون والأشعار.

في طريق عودتهما إلى الدار بذكاء حاول مستدرجًا لكشف سرّ الحوار الذي دار:
- هل حقًا أنكرد مريضة؟
- نعم.

لكي ينسى الموضوع تابعت:
- أسرع... ستتأخر على التمرين... لم يعد عندنا متسع من الوقت.

حزم ملابسه الرياضة بالحقيبة، مرتديًا بنطالاً أخضر اللون صنع من قماش خفيف، قميص أبيض بخطوط طولية وياقة خضراء بنصف كُمّ، لبس حذاءه الرياضي عند الباب صائحًا:
- هيا يا ماما سوف أتأخر.

بحنان أمسكت يده الغضة، لثمتها بقبلة، هرولا نزول الدرج كأنهما في سباق، تركته مودعة خلف بوابة النادي مخاطبة:
- أم صديقك لوكاس سترجعكما معًا، لأن محمد لن يحضر التدريب اليوم، كن بانتظارها أرجوك يا حبيبي.

أسرعت متحدية أميال الساعة في أن تلحقها، رددت مع نفسها عما تحتاجه: بالونات، شموع، هدايا بسيطة للأولاد، عصائر... مُذَكِرة نفسها آمرة: لا تنسي أن تجلبي كيك عيد الميلاد التي طلبتيها من قبل أسبوع.

أملها بحضور كل أصدقاء ولدها، متشوقة لرؤية فرحة المفاجأة على وجهه بعد أن نسى تمامًا اليوم عيد ميلاده العاشر، داعية الرب أن تكون سنة خير، فرح بعد نجاحه بتفوق في المدرسة.

ابتاعت كل ما تحتاج وقفلت مسرعة لتعلق الزينة وتحضر المائدة... دقائق معدودة قرعت الباب، كان محمد بصحبة أمه أول

الضيوف حضر.

سألت سارة بوقفة استعداد لأي أوامر:

- كيف يمكن لي مساعدتكِ؟

أجابتها ماريا وهي تخرج أكياس الزينة من حقيبة التسوق:

- لننفخ البالونات ونعلقها مع باقي الزينة على الجدران والأسقف، شارحة؛ خذوا قطع من شريط اللاصق وأوصلوا أطراف نهايتها ببعض، ألصقوا البالون به من جهة وبالحائط من الجهة الأخرى.

أغاني أعياد الميلاد صدحت في الأجواء، توافد الضيوف... فرحتها الأعظم بحضور أنكرد التي التقتها في ملعب الأطفال بعد أن رجتها للقدوم، رأت ماريا ابنها من الشباك قادم، ساد الصمت... اختبأ الجميع كل في مكان، تحت الأسرة، وراء الأبواب خلف الستائر... فتحت أمه الباب قبل أن يطرقها ثم اختبأت، دخل وصديقة لوكاس معه الممر بطوله... أفزعهما غناء الجميع بصوت واحد:

- عيد ميلاد سعيد.

بابتهاج من قلبه رقص.

لحظات قليلة نحياها من قلبنا بفرح

نسرقها من عمر الزمان عنوة دون طرح

بلا هم، عتب أو ترح

لمن قلبنا انشرح
يزيدوك حبًا، سعادة وصرَّح
قليلون هم كثر وبحبهم ربح
يركبون من أجلك موج الصعب بمرح

عند توديع كل طفل كانت ماريا تعطيه كيس بلاستيكي شفاف بحجم كف اليد؛ بداخله حلوى ولعبة بسيطة كامتنان وشكر لقدومه، وفي بعض الأحيان كيسان لأخيه أو أخته، استأنس الجمع ومزح، ودَّعتهما سارة وابنها بأمنيات صادقه نابعة من قلب محب بالسعادة طول العمر بعد أن أنهوا إعادة ترتيب الأشياء وتنظيف المكان كأنهم لم يحتفلوا.

سماء صافية أضاء ظلمتها بدر كبير ونجوم كالماس تبرق هنا وتلمع هناك، تحاكيه بغرام وغزل... متفرسًا تعابير وجه أمه وتأثير كلماته عليها، قال:
- هل لي من طلب أتمنى تحقيقه... حلمًا راودني مرارًا؟

استفسرت بتعجب:
- مازلت لم أحقق لك حلمًا؟ وبود تابعت: اليوم كل أحلامك مستجابة؟
رد دون لحظة تردد أو تفكير:
- حلمي الكبير دخول الدير.

- 7 -

كم قهرت من أحبابنا
قـــــرارات أفـــرحتنـــا!

ليال طوال هجر النوم ماريا، أضناها السهر عاصرًا قلبها الحرن والألم، كيف لها فراقه!، هو من وهبت حياتها دون ثمن، لسعادته، عمرها برضا نذر وقربان.

أخذت ماريا قبل أن يشارف نهار يوم مشمس على الانتهاء كيسًا بلاستكيًا لبني اللون بحمالتين خصص للقمامة، لرميها عن طريق فتحة خرطوم مغلقة بباب الألمنيوم في طابقها، والنازل إلى غرفة حاوياتها الكبيرة، اعترضتها سارة في ممر الطابق مستغربة علامات الحزن والقهر على وجهها متسائلة:

- مال وجهك قد بهت نوره، أين الفرح، الأمل... لِما كل هذا... لمن تشكي همك غيري، أم تريني لست جديرة بثقتك؟

سقط كيس القمامة من يدها على الأرض مبعثرة محتوياته متدحرجة علب فارغة على بعد، خارت قواها أسندت جسدها على الحائط برجوعها خطوات للوراء، تحررت دموعها الحبيسة من

المُقل، نطقت بكلمات متعثرة بالثقل:

- لا أعرف من أين أبدأ...

أجهشت باكية... قهر سارة منظر جارتها، لم تعهدها هكذا! ضمتها بقوة ماسحة بعطف دموعها:

- هوني عليك، انشغل بالي، هل أنتما بخير؟ هل توماس مريض؟

أخذتها ساندة إلى شقتها، أجلستها على أقرب كرسي لباب غرفة الجلوس، هرعت مسرعة للمطبخ، عادت بكأس شفاف أخضر اللون ذو ورود حمراء صغيرة بذرت على أطرافه العلوية بفن؛ مليئًا بالماء قدمته لها هامسة:

- تفضلي عزيزتي اشربيه ليريحك قليلاً، ثم أكملت: أستأذنكِ لدقائق أجمع النفايات فيها وأرميها، لن أتأخر عليك، إنها شقتك، لا تقلقي سيتأخر اليوم علي في عمله كمساعد طبيب في المستشفى حتى الواحدة بعد منتصف الليل، كما تعلمين هنا لا يعترفوا بما نحمل من شهادة بعد مقارنتها نحصل على درجة أقل مما هي عليه، بعد تردد كثير، سؤال مستفيض أضناه التفكير، لم يجد سبيل لممارسة مهنته إلا هذا مما جعله متوترًا، عصبيًا، ناقمًا على كل شيء...

جلست بقربها على الأريكة ماسكة يدها مستنبئة بأسى:

- الآن أفضل، يمكنكِ الحديث، هل أحدكما لا سمح الله مريض؟

برهة صمت استطردت:

- هل هناك مشكلة ما؟

أجابتها بنبرة شجن:

- إننا بخير، لكن حلم توماس الكبير أن يلتحق بالدير.

بهتت سارة لما سمعت، بعد تأمل وتفكير استحضرت:

- لكنه صغير، كيف له التقرير، بحمل كبير، الزهد من ملذات الحياة أمر خطير، حب الله خير، فمن يهب نفسه له يحظى بكسب وفير، احترم من الناس وتقدير غزير.

حدثتها بحرقة ولوعة حزنها يعصر قلبها:

- إني أعلم هذا وأكثر... لكنه وحيدي، من أجله عمري وحياتي، فكيف السبيل للتخلي عن نبض قلبي، حب روحي، هو صغيري وكبيري.

برفق ولين محاولة التخفيف عنها:

- أكيد إنه ليس أمر هين، لا تعتبري صراحتي وقاحة أو إساءة، هنا في ألمانيا حرية الشخص شبه مطلقة بحكم أعرافكم، تقاليدكم ونحن القادمون من الشرق لا نرى إلا قشورها وظواهرها للأسف، سرعان ما ترين شبابنا يوشم جسده برسوم لا تفهم لها معنى ويعلق الأقراط في أذنيه، يحف حاجبيه وكأنه فتاتكم المراهقة، حتى طريقة ارتدائه للملابس ما كان يجرؤ مجرد التفكير بها هناك، يقيم علاقات مع هذه وتلك دون حد أو شرط،

متخيلاً أنه بهذا اندمج بل انصهر في المجتمع، مسكين هو في هذا التفكير حيث لا يعرف أنكم في دواخلكم تمقتوه ومن أفعاله تلك تكرهوه متناسي أنكم مثلنا بشر، غرائزنا واحدة، الطبع البشري متأصل فينا مازال عندكم ألفاظ (غانية، شذوذ، منحط، ...) هذا لا يعفي شابتنا من فعل مما هو أسوأ، مفهوم الحرية تنظرون له بمنظار آخر، عدم الاعتداء على حرية الآخرين أو اقتحام خصوصياتهم، حتى العلاقات لا تقام بشكل عشوائي غير مدروس لذا تدوم ربما مدى الحياة بغض النظر عن الشواذ، الإنسان له قيمته واحترامه فمثلاً للطفل حق محاكمة ومقاضاة معلمته إن أخطأت بحقه أمام التلاميذ فما بالك بالبالغ؟ هنا تكمن صعوبة أمرك، فإن رفضتِ طلبه سيعتبره تحجيم لحريته، تقييد لأفكاره... لذا أقترح عليك أن تتركيه يخوض التجربة وحده أو معك ليتأكد جدية ما في داخله، أنا مستعدة للمساعدة أيًا كانت، خذي وقتك في التفكير والاستفسار، فما كتبه الله أجزل.

بغصة:

- إني من رأيك، هذا ما توصلت إليه بعد تفكير وتدقيق لكني لا أود البوح به.

برأفة ولباقة صرحت سارة:

- لنبدأ معًا من يوم غد إن أحببت؟

- أوافقك الرأي.

ذهبتا للكنائس القريبة والبعيدة للاستشارة والاستفسار... لم تتركا سؤال، بحثتا باستمرار أيامًا طوال، بحوار وجدال، بعيدًا عن كل كاذب ودجال، مناظرات... مناقشات وسجال، بغية بلوغ أعظم حال، ليفتى العقل دون إجفال، تهدأ الروح تزوف عن استهلال أو ارتحال، لاعتماد القرار وله الامتثال، تزف إليه البشرى براحة بال.

أسدلت خيمة الليل ظلمتها على الأرض، النجم المتلألئ تحدّى بلمعان بريقه البدر المنير ، أخلد من على سطح الأرض يسكن للسكون والراحة بما أتاه به يومه.

اقتربت ماريا بخطى متثاقلة من سرير ولدها الذي أوى إليه مذ قليل، ما أن نظف أسنانه اللبنية الصغيرة بفراغاتها التي لم تعوض بالدائمية بعد على عجل، بلطف وود سائلة:
- هل أحظ من سريرك بمكان؟

رفع رأسه عن الوسادة بحركة سرور وسعادة زاحفًا إلى الوراء رافعًا الغطاء ناحيته، اندست كالبرق بجانبه مردفة:
- لطالما سأشتاق لهذا كثيرًا...

باستغراب همس:
- ماذا وراءك يا أمي، ما الذي تقصدين؟

بتلكؤ وتباطؤ ناحت:

- حلمك قرب مناله، وشرعت أبوابه، دنت ساعاته، غدًا صباحه، في الدير مكانه.

رقص قلبه من أعماقه، تفتحت أساريره، حضن أمه، أغمض عيناه، بشوقه لغده.

- 8 -

عزائنا ببُعد محبينا سعادتهم

رنَّ جرس المنبه الذي ضبطته ماريا مساء أمسها معلنًا الثامنة لصباح يوم سماءه غائمة، وزخات مطره تطهر كل ما على الأرض من بقايا ما علق بها... ضمته إليها مقبلة جبينه:

ـ صباحك خير وسعادة، هل أنت فعلاً مازلت عند رأيك مستعد للذهاب؟

رأسه على كتفها مختبئ في حضنها:

ـ لو يزعجك هذا يا أمي الغيه...

بغصة مكبوتة:

ـ لسعادتك أصبو، لمستقبلك أرنو، لغدك أغدو، فلِما أشكو، بك أعدو، لبر الأمان أشجو.

قبلها بقوة، نهض بجد وحماس، ساحبًا يدها:

ـ متى الموعد؟ هيا لنفطر ونذهب...

خفف المطر تساقطه مفسحًا طريقًا نظيفًا لنزولهما... قطراته الأخيرة تنقر على مظلتهما بلطف وعذوبة، سارا ملتصقين

ببعض، منبهة أخبرته:

- إنها مجرد تجربة لبضعة أيام بعدها القرار لك سيان كان، لا تفكر إلا براحتك وسعادتك يا ملك قلبي الصغير.

- أعلم مقدار ما تعانيه من ألم وحزن، تأكدي يا أمي لن أفعل هذا وأنا مضطر حتى ولا للحظة.

دفعا باب خشبي عملاق تغير لونه لقدمه، دخلا باحة واسعة تفضي إلى ممرات وغرف علق على أبوابها لوحات خشبية مصقولة رفيعة متوسطة الحجم نقش أسماء وأعمال من جلس فيها، بحثا عن شخص بعينه متنقلان بين الغرف بتركيز وصبر... عثرا عليه... وقفا، أخذا نفس من تعب البحث، دقا الباب، أتاهما صوت حنون دعاهما للدخول... جلسا قبالته، كان رجل رشيق، رأسه الشعر تساقط وسطه، وجهه بشوش محبوب يعطيك شعور بالأمان، يرتدي معطف أسود طويل خطوط المكواة عليه حديثة العهد، يتوسط ياقته قطعة قماش بيضاء، قسّم رداءه نصفين حزامًا من الوسط، نظر إلى الصغير مستفسرًا:

- أنت توماس تود الانضمام إلينا في الدير؟ إنه حلمك الكبير على ما أعتقد...

- نعم... أتوق لهذا منذ الصغر، هل توجد شروط يجب علي إطاعتها؟

- كلا... إنك هنا برغبتك، يعني حبك لله وحده هذا كل ما نريد.

فتح درج مكتبه، أخرج حلقة كبيرة رصت فيها مفاتيح كثيرة، بحث بينها، أمسك أحدها بقوة كي لا يفلت فارًا من يده معلقًا معها بحلقة معدنية صغيرة قطعة بلاستيكية زرقاء مستطيلة كتب على ورقة بيضاء في وسطها غرفة ٩٨ فصله عن أخوانه مقدمًا إياه لتوماس:

- تفضل هذا مفتاح غرفتك مع زميلين لك، ستعرف المزيد من معلومات تخص النظام هنا فيما بعد...

أبعد كرسيه للخلف قليلاً، نهض بطوله الممشوق متجهًا إلى توماس قائدًا إياه إلى غرفة إقامة أيامه المعدودة، تدخلت ماريا في طريقهم للغرفة:

- لم أتصور قبوله وانضمامه إليكم في اليوم ذاته لذا لم أجلب له ملابس هل يمكنني جلبها فيما بعد؟

- بالتأكيد... من حقك زيارته عصرًا بين الخامسة والسادسة كل يومين.

كان توماس يعد أرقام الغرف بشغف عدًا زوجيًا تنازليًا حتى وصل العدد مائة... ضحكات بصوت طفل عالية هرجت المكان مصحوبة بضجيج كلمات متداخلة من صوت آخر لا يفهم منها شيء صادره من خلف باب الغرفة المقصودة ٩٨، طرقها القس... ليس من مجيب، ضجيج مستمر، عاد الكرّة بقوة هذه المرة، هدوء

ساد الأرجاء، فتح الباب طفل لم يتجاوز العاشرة، جسمه ممتلئ مائل إلى السمنة، أشعث الشعر ذهبي اللون أعطى لوجهه ذي الملامح البريئة جمالاً وكأنه ملاكٌ من السماء منَّزل.

- صباح الخير...

قال القس متابعًا:

- هذا زميلكما منذ اليوم إن راق له البقاء توماس، أرجو ألا تكون محل إزعاج له كما تفعل ببولص... لا أعلم متى تكف عن شقاوتك؟

ملتفتًا لتوماس:

- هذا حنا المشاكس.

مد يده مصافحًا:

- صباح الخير .

- وصباحكم...

أجاب متنحيًا جانبًا مفسحًا المجال للدخول.

توماس ما انفك يحملق النظر فيما حوله حتى رأى زميلهما الثالث بولص، هزيل البنية منطوي على سريره بهم وغم كأن مصائب الدنيا حلت عليه كلها، قليل الكلام بطبعه، سحنته الداكنة، شعره الفاحم، عينة السوداويتين أوصافه هذه دليل أصوله الأفريقية زادته ابتعاد عن أقرانه وأصحابه وهو في سنته العاشرة، تقدم منه

توماس يمد يده:
- صباحك سعيد، أنا توماس زميلكما في الغرفة منذ اليوم، وأنت من تكون؟

رفع نظره إليه مصافحًا بشجن:
- وصباحكم، أنا بولص.

الغرفة صغيرة تحوي ثلاثة أسرّة غطت بشراشف بيضاء، يبعد السرير عن الآخر مترًا بتوازي قبالتها خزانة ملابس بضلفات ثلاث كبيرة، تتوسط الغرفة منضدة دائرية صغيرة؛ التف حولها ثلاثة كراسي جميعها صنعت من خشب زهيد الثمن بلون بني فاتح، عُلق فوق وسط سرير بولص صورة بإطار خشبي بسيط لعائلة أفريقية، أم وأب يتقدمهما في الوسط بنت وعلى كل جانب ولد الذي إلى يمينها واقفًا بخجل واضح يشبه بولص لا يحتاج الوصف، فوق سرير حنا علقت صورة منسوخة لمنظر طبيعي مبهج لفصل الربيع، وترك الجدار فوق السرير الوسط عاريًا منتظر صاحبة الموعود.

وهو ينظر لتوماس أشار القس للسرير متحمسًا:
- انتظرك هذا كثيرًا!، ستتوسط خزانة الملابس أيضًا بعد أن تأتيك أمك بها، سأترككم الآن في أمان الرب كي يتسنى لكم التعرف على بعضكم أكثر...

وقبل أن يخرج أشار لتوماس:

- هل عندك سؤال، أو أي استفسار؟

- لا يحضرني الآن ، ربما فيما بعد... هل يمكنني ذلك؟

- طبعًا، في أي وقت وآون، أيًا كان، لا تتردد...

ثم بابتسامة حب وحنان:

- أنت تعلم أين تجدني...

استدار مودعًا غالقًا الباب خلفه.

• • •

بصمت وتركيز بقيت ماريا تحدِّق في كل صغيرة وكبيرة طوال الوقت لتسأل ابنها مستفسرة:

- ما شعورك الآن؟

تفحص ببصره أرجاء المكان، رسم بسمة رضا، أجاب:

- الأمور مشجعة يا أمي... أتصور أني سأجد نفسي هنا.

- هذا ما انتظرت سماعه، سأغادركم أيضًا لجلب ملابسك.

دنت منه لتقبله، لم يسمح لها، شعر بالحرج من زميليه كأنه أصبح رجل في ثانية... لن تستسلم، الحب لا يعرف عمر أو ظرف، إن مر الزمان يستحيل استرجاعه بالحيف، لما نخبئ أحلى مشاعر خلقت فينا بإجحاف ليهتدي من تجبر وتعسف، يندم على ما فاته

بأسف... طبعت قبلة ساخنة على جبينه مودعة على أمل لقاءهم بعد ساعة.

• • •

ما أن أوصدت الباب خلفها حتى تقدم المشاكس من زميلهم الجديد منفجرًا بأسئلة تورمت في صدره:

- كم عمرك؟ لِما أنت هنا؟ في أي مرحلة دراسية؟، كم...؟

استوقفه توماس بتدخله:

- كيف لي أن أجيبك على كل هذا دفعة واحدة، على مهلك عليَّ، ستعرف كل شيء، منْ يشاركني حياتي لابد له من معرفة ما بداخلي، فما بالك وأنتما منذ الآن أخواي اللذان لم تلدهما لي أمي؟

احمر وجه حنا خجلاً مطأطأ رأسه متلعثمًا بكلماته:

- أوه... يبدو أن حياتنا ستجري بغير منحنى! إذا اعتبرتني أخاك... يسرني ذلك.

التفت توماس نحو بولص:

- ماذا عنك؟ هل هذا سار عليك؟

لم يخف دهشته :

- لم يطلب أحدهم مني يومًا رأيًا، الكل يهزأ بي مبتعدًا عني كأنه سيصاب بمرض، رغم حب الراهبات والقساوسة وإيماني المطلق

بالرب، لكنهم أعني زملائي نبذوني دون ذنب، ما بالك وأنت تطلبني ليس كزميل بل أخ؟

بشجن ومودة:

- سترى أيامنا المقبلة ونحن أخوة!

ابتهج قلبه للخطوة، نشدت روحه غنوة، اغتصب من الحياة فرحة، يا حسرة منْ له كثر أخوة، بهمهم حملوه، زاده ضره، تراه يعترك الدنيا وحده بقوة، بمصابه هم قساة غربة، حزنه بحرقة ولوعة.

وقف بولص متجهًا نحو توماس بفرح كمن شفى للتو من مرض عضال مادًا كفه أمامه:

- نتعاهد إذن على هذا إلى ما شاء الله .

شاركه فرحته... واضعًا بشغف كفه على كف بولص ناظرًا متسائلاً:

- ماذا عنك يا حنا؟

بتباطؤ وتردد مدَّ كفه على كفيهما:

- ليكن لكما ما ترغبا .

أسئلة كثيرة، أجوبة مستفيضة، بفضول، رضا، استهجان، ضحك وشقاوة أطفال ختموا جلستهم، قبل طرق الباب بقليل أجابوا كلهم بصوت واحد دون اتفاق:

- نعم، تفضل... علت الضحكات.

دخلت ماريا مستغربة الاندماج السريع بينهم:
ـ آسفة، لا أريد المضايقة...

نظرت إلى ابنها متحدثة:

ـ جلبت حقيبة ملابسك.

أسعدها فرحه... وقف متجهًا نحوها، تناول الحقيبة من يدها:
ـ شكرًا يا ماما أتعبتكِ معي.
ـ لا تقل هذا، تعبك لي راحة.
وهي تضمه إليها مودعة.

• • •

انتهت أيام التجريب... اتخذ قرار البقاء مع الأصدقاء، انصهروا مع الأيام في بوتقة المحبة والألفة، تعايشوا، تشاركوا في الأكل ومبادلة الأفكار والآراء، انضموا إلى مجموعة واحدة في التراتيل.

مشاكسة حنا لبولص خفت لكنها لم تنتهِ، كان يتوق لها بين الفينة والأخرى حيث تطرب قلبه وتنعش روحه الغضة الشقية وتزعج توماس وتثير غيظه وحنقه عليه، ففي أحد الأيام عندما خبأ كراسة بولص لامتحان اللغة الألمانية وقواعدها ناكرًا علمه بتواجدها بإصرار حتى صدقه توماس من طيبته ودمث أخلاقه نظر إلى بولص مستعلمًا:
ـ ربما نسيتها في مكان ما دون انتباه؟

- لكنك عرفتني بعد هذه الفترة الطويلة عن قرب كم حريص أنا على أشياء غيري كما لنفسي فكيف الحال بأشيائي؟

بعد بحث مستمر ليوم بطوله وأتعبهم عناء التفتيش في كل مكان يخطر على البال، اتفقوا أن يدرسوا مع بعض للتحضير للامتحان، كل منهم امتد على سريره متمنيًا ليلة سعيدة وأحلام جميلة محملة بتحقيق الأهداف للباقين، وقبل إطفاء الأنوار أخرج حنا كراسًا وهو يضحك بمكر ودهاء من تحت مضجعة:

- هل هذا ما كنتا تبحثان عنه طوال الوقت؟

- نعم.

بسذاجة أجابه بولص قافزًا عليه من سريره ساحبًا إياها من بين يديه.

صدمة توماس أربكت تفكيره لبرهة، انقضّ عليه محمر الوجه وعينيه تتطاير شررًا، عاضًا شفته السفلى بسخط وغضب ولولا تدخل بولص بكل ما أوتي من قوة بينهما لكانت عواقب هذا الشجار وخيمة لا تحمد عقباها...

• • •

اغتبطت ماريا من اندماج ابنها وتأقلمه، طمأنها عليه مما دعاها لقبول العمل المرسل إليها من دائرة العمل كسكرتيرة في شركة لبيع الأجهزة الاحتياطية للسيارات، ثماني ساعات في اليوم طيلة

أيام الأسبوع عدا السبت والأحد فهما عطلة رسمية لأغلب الشركات في ألمانيا، حيث تتبضع مؤن طعامها وشرابها لأسبوع قادم كل يوم السبت وتصطحب ابنها كل أحد في نزهة من الصباح الباكر حتى الساعة الخامسة عصرًا ليشارك بعدها في ترانيم المساء .

• • •

فوضى وارتباك عمَّا الدير في التحضير لاستقبال قسها الجديد بعد يوم "شتينمان"، ترتيب وتنظيف مبالغ فيه، دعوات لتواجد جميع من في الدير... بشوق وفضول لمعرفة القادم الهمام، شرعت الأبواب بفتح الأقفال على مصراعيها لملاقاة "شتينمان".

دخل بخطى ثابتة واثقة رشيقة، ملابسه الأنيقة كأنها أخرجت من أكياسها قبل ارتداءها كادت تعكس ضوء الشمس في باحة الدير، كان متوسط الطول برأس كبير عريض يبعث الريب بأنه له، عيناه صغيرتان ثاقبتي النظر، أنف طويل أفطس قليلاً عند فتحتيه، شفتيه منتفختين كشفتي أفريقي، حنطي البشرة... أفزعت نظراته توماس باشمئزاز، حين التقت عيناهما، ارتجفت أوصاله دون سبب واضح، تراجع للوراء محاولاً الاختباء، شده بولص الذي كان وقفًا بجانبه مثبتًا مستفسرًا:

- ماذا هناك، هل رأيت وحشًا؟ انظر إلى قسنا ما أجمله وما أبهاه...

استدرك كمن يعود وعيه بعد غياب:

- لا شيء، الأمر وما فيه هو أنني شعرت بدوار .

ساعات ثقال أجهد نفسه توماس للاستمرار بالترحيب والاستقبال بإكراه وإرغام.

• • •

ظلَّ القس شتينمان كل يوم يمر على مجموعة من الأولاد ليتعرف إليهم عن قرب؛ مقدمًا هدايا تذكارية كأول تعارف ليحببهم فيه، كيف لا وهو المسؤول عن حل مشاكلهم الاجتماعية.

عندما أتت أم توماس لاصطحابه يوم الأحد في نزهة لزيارة المتحف الوطني الألماني في مدينة ميونخ الواقع على نهر ايزر، والذي يضم أقسامًا مختلفة لتطور الطائرات والسيارات وغيرها، حضرا عرض تكوين البرق والرعد بشرارة كهربائية بين عمودي كهربائيين وضعا واقي الأذن لتقليل هول الدوي الناتج عن ذلك، لم يكملا زيارة كل الأقسام لكبر المتحف وشعورهما بالجوع والتعب، جلسا في مطعم محاذي للنهر لتناول وجبة الغداء، أشار توماس لأمه بإحساسه بالقس الجديد شتينمان، أجابته لابد من إعادة النظر، فلا يمكن أن يكون صحيحًا...

• • •

كلام شتينمان مع الأولاد رزن، أفكاره ذات وزن، وجهه معهم حسن، يبعث في روحهم أمنًا، في قلبهم سكنًا، يزعم للفرح ينشد يمقت الحزن، سامرهم ليبعد عنهم أي شجن، إن غاب يومًا لهم يحن، كسب حبهم بلين.

قضى توماس أيامًا في البحث مع نفسه مرارًا عن سبب شعوره المقيت الأول ذاك يوم رأى شتينمان فلم يجد سببًا مقنعًا يدعوه لكل هذا العداء!، دعا ربه أن يغفر له سوء ظنه، قاهرًا شعوره، كابحًا إحساسه بالكره، أيامًا في صراع حتى اطمأن، هدأ ومن شتينمان محاولاً اقترب... تغيرت، توطدت مشاعره بخطوات متباطئة، حذرة؛ لتصبح جارفة بحب حاميه لا تقارن علاقته مثل باقي الأولاد.

إحساس لم يعشه من قبل معه شعره ولمسه، ملك عليه كيانه، أبي... كلمه كبحها في داخله طول تلك السنين آبية أن ترى النور، كم اشتاق للفظها، نطقها... لأول مرة بتردد وتعتع أكملها، لشتينمان نطقها، تكرارًا رددها، اقشعر بدنه طفرت دمعة من عيناه، احمرت وجنتاه وفي حضنه ارتمى، ضمه شتينمان إليه بقوة مسح دموعه، طبع على وجنتيه قبلة، عاهده ألا يتركه وفي كل وقت بجانبه يجده مهما حصل، تفتحت أساريره كتفتح ورد الجوري في فصل الربيع تسعد ناظرها من قريب وبعيد.

- 9 -

خبايا الحياة تكشفها الأيام بعد تنائيها عنا

كعادتها أتت ماريا يوم الأحد لاصطحاب ولدها باكرًا، وجهتهما كانت قصر ملك بارفاريا لودفك الثاني في مدينة فوسن القريبة من سكنهما، الواقعة على قمة جبل متوسط الارتفاع، ولصعوبة ارتقاءه بسرعة والاستمتاع بقضاء أطول وقت ممكن هناك؛ استأجرا عربة يجرها حصانين بسعر ليس زهيد...

الحوذي يرتدي الزى البفاري وهو عبارة عن قميص أبيض في الغالب وسروال قصير جلد أصلي بني اللون مطرز على جانبيه ورود ناعمة، ألوانها مختلفة تنتهي بجيبين مرتفع بحمالتين، جواربه صوف طويلة حد الركبتين تزاح إلى الأسفل عند حذاء جلد جبلي في الأجواء الحارة.

انطلقت العربة بهم، داعبتهم نسمات الهواء المنعشة في بداية يوم صيفي حار، وضعت ماريا يدها على كتف ولدها لتضمه إليها فنهرها راجيًا:

- أرجوكِ يا أمي لا تفعلي هذا...

باستغراب:

- لكَ ما ترغب!

سحبت يدها لحضنها بخيبة أمل، الأفكار والوساوس غزت فكرها! لاحظت التغيير في تصرفاته، عزت ذلك دخوله فترة مراهقة! ملاطفة مستفزة:

- ماذا تفعل لو انزلقت أرجل الحصانين ووقعنا في الوادي؟

ببرود:

- لا فرق عندي، كل شيء سيان.

أدهشها انفعاله، لم تتوقع رده:

- هل أنت واعٍ لِما تقول؟ ما سبب حزنك يا حبيبي؟

- لا شيء، إن مات أحدهم لن تتوقف الحياة عنده ولا الزمان، المقربون سيذكرونه في البدء، سرعان ما يركن في ذاكرة النسيان بمرور الزمان.

- أراك تتمنطق بكلام لم أعهده فيك، عجبي هل تخبئ سر عني أم أنك فجأة كبرت؟

- لا هذا ولا ذاك، كل ما في الأمر قلت ما شعرت به دون تفكير .

- هم وحزن لا يتناسب وعمرك الغض يا قرة عيني، ما زلت في

سنتك الثانية عشر، صغير على حمله من الآن!

- لا تخافي، نعيش الحياة لتدربنا على دروسها!

صمتت، قلقها عليه زاد، الأمر جاد، محاولة طيلة الوقت إخراجه من هذا المزاج بأنجاد دون أضداد .

كان ساهمًا، شاردًا في ملكوته سارحًا... مستنبئة مباغتة:

- هل تود العودة، أزعجتك بشيء دون قصد؟

كانطلاق السهم:

- لا... لا أود العودة، لنبقى هنا أطول وقت ممكن.

- هل عندك مشكلة مع أحدهم؟ لذلك لا ترغب في الرجوع؟

- كلا... لا يوجد ما يزعجني، لا داعي للقلق .

بعد لحظة تفكير:

- شوقي لإعادة أيامنا الجميلة، ما رأيك أن تمكث معي بضعة أيام؟

صمت متأملاً، غرق في التفكير، قلق، حيرة بانت على ملامح وجهه بارتباك ملحوظ:

- عندي تمارين على التراتيل في الأيام المقبلة.

نزلا سيرًا إلى مركز المدينة عند الثانية عشر ظهرًا، جلسا لتناول الغداء في مطعم الوجبات السريعة. بعناد محاولة استدراجه لمعرفة ما يقبع في صدره وهذه المرة أيضًا بلا فلاح، خضعت

لإصراره بعدم البوح، مهدئة نفسها بانشراح، لا يوجد ما يدعي للقلق وعدم الارتياح، ققفلا أدراجهما إلى الدير، قبلته مودعة حيث يقيم.

• • •

دخل يجرُّ قدميه إلى الغرفة بتثاقل، رمى جسده بذهنٍ شاردٍ على السرير.

- قل مساء الخير يا أخ... أعتقد، حسب ما تعلمت منذ الصغر، من يدخل في مكان فيه بشر يسلم أولاً، ما عهدتك هكذا!

بلهفة أكمل بولص:

- كيف كانت رحلتك هذا اليوم وأين كانت الوجهة هذه المرة؟

طال انتظار الجواب لدقائق من له حب الفضول، على عجل بكلمات بلا توقف ردد حنا:

- لقد سألك بولص عن رحلتك وأنا كلي شوق أيضًا لمعرفة كل صغيرة وكبيرة، ها...ها... هيا انطق؟

- كل شيء على ما يرام، كسابقتها ما الذي تنتظراه جديدًا؟

- نتكلم في هذا فيما بعد...لابد لنا الاستعداد للذهاب للتدريب على الترانيم...

مخاطبًا إياه بولص.

توماس معتذرًا:

- أشعر بالوهن والتعب ربما مرضت، لا أعرف، لا أستطيع الذهاب!

- حسنًا سأبلغهم أنك مريض؛ يمكنك البقاء، حاول الراحة والاسترخاء.

- شكرًا لك أخي بولص...

تركاه وذهبا متمنيان له الصحة ومعاودة النشاط، لم يبرح الفراش محاولاً بعناء النوم أو راحة البال فلم ينل المنال، انقلب يمين ويسار مرارًا وتكرار، جلس، انكمش على نفسه، فتح الضوء أطفأه، قام سار خطوات، عاد جلس... استلقى على الفراش، على هذا حاله استمر ساعات... بكى ثم ناح ناشجًا متشنجًا...

• • •

أيام صعبة الاحتمال عدَّها بصبر وطولة بال، الكل انتبه من كثر الغياب والإهمال، هو قدوة في الانضباط والاكتمال، ساء وانهار الحال، لازم السرير لا يقوى الجدال، انطوى على نفسه ليلاً وليالٍ.

كوابيس ليل نهار... ليلة لا تُمحى من البال، صاح بصوتٍ عالٍ والعرق يتصبب كحبات المطر من مسامات جسمه كلها، منكمشًا في جلسته مقرفصًا، مطوقًا رجليه بيديه ليمنعهما من الهرب وهو ينتفض، يرتعش، يلهث بنفس مسموع بضربات قلب متراكضة

كأنه فاز بالفرار لتوه من شخص ما! عيناه توسعتا برعب كأنهما ستقفزان من مكانهما تبحث، متجولة بذعر وخوف في كل مكان.

فتح الضوء بولص، نهض نصف نائم بشعر منكوش ساحبًا غطاءه خلفه لا يعرف أين يلوذ بالفرار، شد غطاءه زميلهما حنا مغطيًا رأسه متكورًا تحته خائفًا، فرعبه مميت في الليل عندما أحدهم يصيح... ساقاه لا تقوى على الوقوف... بجهد مضنٍ، بعد حين تدريجيًا استجمع قواه، أزاح عنه الغطاء، نهض ما أن نظر بولص واقفًا بجانب سرير توماس المنكمش على نفسه، وشعره منفوش، ماسكًا طرف غطاءه بيده ساحبه وراءه حتى كاد يختنق بضحكه... سالت دموعه ضاغطًا بيديه على بطنه من شدة ألم الضحك، تنبه بولص لما فعل خجلاً، بدأ هو الآخر بالضحك فالعدوى سرت! وعى توماس للهرج وابتسم ثم ضحك متناسيًا ما حلم، فجأة انقبض عاد وانكمش... جلسا زميليه إلى جانبيه مستفسران عن السبب وبما حلم... اقتضب ككل مرة بمفردات لا تغني فضول أجاب:
- لا شيء... إنه كابوس وذهب .

• • •

رنَّ الهاتف عند ماريا... ردَّت بحكم طبيعة العمل باسم الشركة واسمها العائلي عن أي نوع من الخدمة يمكنها تقديمها للمتصل، صوت نسائي رقيق يتدفق عذوبة:

- هل حضرتك ماريا أم توماس، أنا الأخت أورزلا .

برعب وخوف:

- نعم. أنا هي، هل أصاب ابني مكروه؟

- لا أدري كيف أرد... في الحقيقة... أعني إنه... بخير... ولكن في الوقت ذاته... ليس كذلك .

- أفصحي الكلام أرجوكِ، لم يعد عندي صبر للتحليل والتفسير .

- أرجوك الحضور... لا أحد منا يعرف ما الذي أصابه!

- حسنًا... سآتي في الحال، مسافة الطريق.

- إلى اللقاء.

هرعت والخوف غلبها على وحيدها وعقلها بارتحال، مستأذنة من العمل دون جدال، مستفسرة عن حالته بإذلال، حينها لا تفكر لوضعها بإجلال، انكسر عليها وأشفق قلب حتى المختال .

• • •

اختلف في مرضه الأطباء، كثيرة هي الآراء، قالوا ليس له دواء، حاله صعب الشفاء، لا يوجد مرض في الأعضاء، علته ليست في الأحشاء، إنه اختبار من الله ابتلاء، أحيانًا يصعب عليه استنشاق الهواء، يتعبه حتى شرب زلال الماء، في لحظات الزائرين حوله سعداء، تصيبه حالات إغماء، بكى حاله الغرباء قبل الأهل

والأصدقاء، قهرهم عليه بلا عزاء، قربه لقلبهم فهو من الأعزاء، صلاتهم بالشفاء نهار مساء، لا شك في عدالة السماء.

• • •

اتصلت بأخيها أدريان الذي هاجر مع عائلته إلى نيوزلاند منذ أعوام، فاجأه النبأ، حجز أول طائرة بإقدام، في المستشفى زاره محمد وأمه سارة باستمرار واهتمام، وصل خاله بعد أيام، ذهب إليه للإتيان بقرار... لم يركن الاستحضار بإحكام .

كاد يكون طبيعي بحضور خاله، بزيارة القس شتينمان ينقلب حاله، تأكدت شكوك وظنون أدريان... تابع عن كثب وأصالة، سأل وتفحص بلا استحالة، لابد لهذا العبء من إزالة.

• • •

شارف الحال بالانتهاء، زيارة خاله كانت الدواء وفيها الشفاء، جالسه بحب وصدق فكاشفه دون إخفاء، حبه قابعًا بالأعماق بلا مراء، باح بثقل صدره دون غش أو افتراء، صدمته بما سمع كادت تنهيه... تداركها بذكاء، عاهده أن لكل مخطئ جزاء، غدًا تشرق شمس الحق ساطعة في الأجواء.

- 10 -

مـنْ ينـذر نفسـه لحـب الله
يتخلى متعالٍ عن ملذات الحياة

استكمل مع القارئ ما بدأته في فصل روايتي الأول عن حلم ماريا وما آلت إليها رؤيتها:

صحت من نومها صارخة باكية والرعب مسيطر عليها من هول رؤيتها... لم تستطع النوم مجددًا، تقلبت مرات ومرات مسترجعة بدقة رؤيتها، شعور برهبة وخشوع ممزوج ممدود، نور من السماء يخاطبها دون حدود، باستغفار لكل الذنوب... بكت بصدق محمود، كيف نطقت كلمات بداخلها ليس لها من وجود، ولا يومًا فكرت بإلحاد حتى عنه تعود، ابنها وهبك نفسه وبحبك محسود، قلبه بك مشدود، تتمنى لقاءك دون وعود، طلع الصباح عليها بحيلٍ مهدود، نهضت وأمرها محسوم موجود، كتب لنا دربنا منذ أتينا للوجود، مؤمنة هي لا بقاء في الحياة أو خلود.

• • •

ذهبت للمستشفى بعد تردد وعمق التفكير، أمسكت قبضة باب

الغرفة التي يعالج ابنها فيها، لسعتها موجة برد، دعتها، تركتها، استدارت للوراء، رجعت تقدمت للأمام خطوات، حسمت أمرها دخلت، ابنها بقرب خاله جالس ومعه يتسامر، يضحك... فركت عينيها بيديها غير مصدقة، ركضت، تعثرت بحافة السرير دون شعور ضمته مطوقة بيديها مقبلة من قمة رأسه حتى يديه بدموع، ارتجف قميصها من نبض قلبها، شدها أخيها من يدها مهدئ دعاها للجلوس:

- الله كتب لنا ما يريد!

- نعم هذا صحيح بالتأكيد.

بجسم مرتجف جلست غير مصدقة ما ترى، بعد نفس عميق، راحة أنعشت الروح قبل الجسد، سردت حلمها، رؤيتها برهبة وخشوع، أكملته بالدموع، لله الطاعة والخضوع، سألت عن السر المقبوع، برجاء منقوع، ترك توماس لخاله الموضوع، للأمر جذورًا وفروع، سيكون رأي عام بدون خنوع، الله خلقنا أحرار بلا قيود وجزوع، قتل حب صادق بهذا الشروع، أين حبه للخالق أليس له ردوع، في الأرض بحب الله نحن دروع، تلقفت الصحف والمجلات الفضيحة بوضح وطلوع، بلا تزيف بصدق نابتًا في الضلوع.

• • •

زيارات ومقابلات من كل حدب وصوب، تؤكد لا خوف مع الحق، عاد توماس للدار بعد علاج نفسي مكثف مع زملاء له في الدير من هذا الداء الخطير.

• • •

لم يتبين الطارق على الباب لكبر باقة الزهور التي يحملها مخبئ وجهه خلفها، أمالها جانبًا أمير بابل محمد بضحكة عالية خرقت كل أذن في الجوار، حضن حميم ممزوج بصدق بلا رتوش، فتحت سارة باب شقتها مهنئة عودته لهم وللحياة بسلام، دعاهما بالدخول، جلسوا جميعًا مسرورين فرحين...

استهلت سارة جلستهم بقولها:

- هدفي لا مضايقة وإزعاج، أو لا سمح الله الاستعلاء، إنك يا بُني محظوظ نال المجرم الجزاء، عاد هنا النصاب بالأرجاء، في بلدي كم جرم اقترف باسم الدين والله على مرأى العالم في كل الأنحاء، أخذوا مناصب بالاستيلاء...

توقفت لبرهة، تابعت بغصة:

- الموت في بلدي أصبح على الهوية جار، بالمال جار باع جار، الإنسان يذبح كالأبقار، بدون سعر أو استغفار، سكن الخوف قلوب الكبار قبل الصغار، سنون مضت زادتك يا وطن اندثار، لا كلام نفع ولا حوار، لوعتنا استوطنت أبداننا الأكدار، استسلمنا رامين

حملنا على الأقدار، ماذا دهاك يا بلد وما الذي صار، فيروز غنت لك أعذب الألحان منذ كنا صغار، نظمت القصائد فيك وأحلى الأشعار، انهض شامخًا لكل محب وبار، خرجنا جبرًا وعيوننا شاخصة للدار، فلا تطل علينا الانتظار، إننا سأمنا الانتظار...

بحب لله والإنسان، بدفء وحنان عم المكان شدت ماريا:

- المشاعر الصادقة تُحس دون عناء، جميعنا يرنو للسعادة والهناء، كن صادقًا مع نفسك والآخرين بصفاء، حينها تتفتح أسرار الأرض لك بثراء، كُل يطرب بما يهوى من غناء، ترى الألوان السوداء بيضاء، تنعم روحك بالراحة والاسترخاء، لا تجهد نفسك وتبحث بالخفاء، لم تصل خبايا الأشياء، حتى لو قدمت قربان وولاء، تعبك سيكون هباء.

بحرج خجلة سألت سارة توماس:

- هل ستعود لمواكبة المسير في الدير؟

بنبرة واثقة:

- حبي لله لا يقاس ببشر شاذ أو متعجرف، فالرب مالك عليّ كل كياني...



تمت

نهاية إسماعيل بادي

٢٣ آذار ٢٠١٧ - ألمانيا/ ميونخ

المؤلفة في سطور

- قاصة وروائية عراقية، من مواليد بغداد ١٩٦٨م.
- حاصلة على الشهادة الإعدادية الفرع العلمي .
- تم قبولها في المعهد الطبي الفني في العاصمة بغداد عام ١٩٩٠ وبسبب هجرتها مع زوجها لم تلتحق به.
- أسست مع زوجها مجلة ناطقة باللغة العربية بعنوان "ميمرا الكلمة"، في ميونخ عام ١٩٩٩ واشتركت في تحريرها لمدة عامين طول عمر المجلة.
- نشرت مجموعة من القصص القصيرة في مواقع ومجلات عراقية وعربية منها: منتدى الوالي للقصة القصيرة، مجلة العهد، الحوار المتمدن، ديوان العرب، مركز النور، الناس وغيرها الكثير.
- الإصدارات:

ـ تحت غطاء الرب: رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٧م.

ـ نزوة: مجموعة قصص قصيرة. تحت الطبع. شمس للنشر والإعلام.

- البريد الإلكتروني: nehaya.badi@outlook.de



(+2) 02 27238004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net